# قبل الحب أحيانًا


إحسان كمال



**الناشر**

**دار قباء** للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

**عبده غريب**

الكتـــــاب : قبل الحب . . أحياناً
المـؤلـــــف : أحسان كمال
تاريخ النشـــر: ١٩٩٨م


الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
شركة مساهمة مصرية
عبده غريب

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان
والمطابـــــع المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون
الدور الأول – شقة٦
ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨
رقـم الإيــــداع : ٩٨/٢٤٨٩
الترقيـم الـدولــى : ISBN
977 - 303 - 005 - 9

# قبل الحب أحيانًا

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما وجهت الحاجة أنيسة سؤالها .. كانت تتربع فوق تقاطيع وجهها كله.. ابتسامة سعيدة، ويبدو أنها كانت تتوقع أن يسعد السؤال ابنتها بدورها، الأمر الذى جعلها تدهش أشد الدهشة عندما رأت اضطرابها البالغ .. بل جزعها . لدى سماعه، حاولت رجاء أن تتماسك وتصطنع الهدوء وهى ترد:

- سأفكر ثم أرد عليك بعد بضعة أيام.

قالت الحاجة باستنكار : تفكرين ؟!

ردت الابنة باستنكار أكبر : أولا ترين الأمر يستحق التفكير؟، عندما تتأهب فتاة للرد على سؤال فى امتحان مدرسى .. فإنها تفكر عدة مرات قبل أن تجيب، فكيف بسؤال فى موضوع ارتباط يترتب عليه مصير حياتها؟ .. إنها إذن تفكر مائة مرة، فإذا كانت مثلى تقدم على الزواج الثانى فإنها يجب أن تفكر .....

قاطعتها الأم : ألف مرة طبعا، هذا إذا كان الأستاذ صادق يسألك هل تقبلينه أم لا، لكن الذى أعرفه أن هذا الأمر انتهيتما منه، وبناء عليه يتردد علينا بالزيارة .. كما تلتقيان فى المدرسة وخارجها، وسؤاله اليوم عن موعد حفل القران. ففيم التفكير؟، إنه يقترح الخميس بعد القادم .. فما رأيك؟

تنهدت رجاء : حسنا .. عندى زيارة سريعة .. وعندما أعود منها سوف أختار اليوم المناسب.

راحت تسير على غير هدى، من حق أمها أن تدهش فعلا لموقفها.. هى نفسها مندهشة منه، منذ شهور وصادق يلمح برغبته فى التقدم لها، ثم ترك التلميح إلى التصريح .. وهى وافقت، وجدت أنه أفضل شخص لها، صحيح أنها لم تحبه ولكن .. ماذا جنت من زواج الحب غير الفشل والمرارة والإحباط؟، وأى حب، أحبته بكل نبضة فى قلبها وكل خلية فى دمائها، رائف أيضا كانت لهفته عليها حديث الزملاء على مدى سنوات الدراسة بالكلية، لم يستطع أن ينتظر حتى يتخرجا، تقدم لها وهما بعد فى عام البكالوريوس، طبعاً أسرتها لم توافق، مستقبله غير واضح المعالم، قليل جدا من خريجى كلية الفنون الجميلة من ينبغ ويطير صيته .. الموهوبون فقط.، يعنى واحد بين كل مائة .. والباقون يعملون بالتدريس، مهنة ليست لامعة، "ترفضين طبيبا وصحفيا ومهندسا وتقبلين مدرسا؟!" وإن لم تعد هذه المهنة مثلما كانت فى الماضى، بعد أن ألهب سوط المجموع ظهور الطلبة .. ومن خلفهم أولياء أمورهم .. فأسرعوا جميعاً يعدون خلف الدروس الخصوصية مما فتح أمام المدرسين مجالات ومجالات، طبعا مدرسو اللغات والعلوم والرياضيات أكثر حظاً فى هذه الناحية، أما مدرسو التربية الفنية فظلوا مربوطين على مرتبات مدارسهم!.

لكن رجاء تصمم عليه وترفض كل من عداه .. إنه الحب، وهو؟ .. راح يستعلم عن عناوين أعمامها وأخوالها ليدور عليهم راجياً أن يتوسطوا له عند والدها، مرة أخرى إنه الحب، فأين إذن ذهب كل هذا الحب بعد أعوام معدودة من الزواج؟.

طبعا لم يتم الزواج هكذا سهلا، بعد كل الوساطات والمحاولات .. وافق الوالد أن تنتظر رجاء حتى يتخرج رائف ويرى أى عمل يلتحق به، وظهرت نتيجة التخرج... الأول على الدفعة كلها، وفى الشهر الثانى يعين معيدا بالكلية .. ليقدم الشبكة فى الشهر الثالث، فماذا يدعو للانتظار ورجاء بدورها تخرجت أيضاً، طبعاً ترتيبها متأخر كثيرا.. لكن ليس هذا معناه أنها أقل منه كفاءة أو موهبة ـ هكذا كانت تردد دائما ـ وإنما لتفرغه هو التام للدراسة وانشغالها هى بشئون والدها وشقيقها وأمور المنزل كله .. حيث والدتها معارة كناظرة مدرسة إلى دولة عربية.

العام الأول مر سريعاً شأن الأيام السعيدة .. كشهر عسل طويل، بعده بدأت تعانى متاعب الحمل، هى من أول الأمر كانت تود إرجاء الإنجاب لكن رائف رفض .. ذلك أمر خطير، فمن يدرى إذا كانت تستطيع الإنجاب أم هناك ما يعوقها؟، فإذا كان الأمر كذلك فالعلاج فى بداية الأمر يكون أسهل ونجاحه أكثر احتمالا.

ويأتى راشد .. ملاك جميل يسعد أى أم، ورجاء طبعا لا تشذ عن أى أم، لكنها فى أحيان كثيرة تشعر بالمرارة تخترم سعادتها، ها هى ذى تتأخر فى فنها كثيرا عن زوجها، أكثر من مسابقة فنية تقدما لها معا فيحصل هو على إحدى الجوائز الأولى .. ولا تحصل هى على شئ، أكثر من معرض قبل لوحات لرائف ولا يقبل لرجاء أى لوحة، وسحب الثورة والسخط تتجمع داخل نفسها وهى تكبتها .. حتى أصبح داخلها كما الأتون الذى ينتظر شرارة صغيرة لينفجر!.

وجاءت هذه الشرارة ذات يوم فى صورة إعلان عن مسابقة فنية فى الرسم أقامتها إحدى الهيئات، قدمت رجاء الإعلان لرائف فى صمت فأخبرها أنه قرأه .. سألته :

ـ هل تنوى التقدم بلوحة لك؟.

ـ طبعاً.

صمت قليلا ثم سألها : وأنت ؟

لم تجب للحال فعاد يردف: أرى أن توفرى جهدك فالمسابقة ليست سهلة.

صرخت : تعنى أننى لست كفؤا لها؟!

تلعثم : لا .. أقصد .. يعنى ..

قالت بمرارة : أين ذهب منطقك وبلاغتك؟، تريد أن تبحث بين الكلمات عن حروف العزاء المخففة، ولماذا التخفيف؟، قلها صراحة.. ألم أفشل أكثر من مرة ؟، لكن لا.. أنت تعلم السبب، من غير المعقول أن تظن سبب فشلى المتكرر نقص فى إمكاناتى.. غير واضح فى اعتبارك السبب الحقيقى، نعم لا يمكن أن تكون جاهلا به.. والأصح أنك تتجاهله؟.

كان يستمع إليها باندهاش حتى انتهت فسأل وهو ذاهل.

ـ عن أى شئ تتحدثين بالضبط ؟!

ـ عنك طبعا.. يا فنان يا عظيم .. يا حاصل على أكبر الجوائز، ولماذا لا تكون فنانا عظيما وأنت تتفرغ لفنك ملقيا على عاتقى بكل الأعباء التى كان يجب أن نتقاسمها، هذه الأعباء قتلت الفنانة داخلى وحولتنى إلى ربة بيت عادية، لا .. أقل من ذلك .. إلى خادمة، لقد كنا كلانا أنا وأنت .. نعمل من أجلك أنت فقط .. أبعدت عنك كل شئ لتتقطع إلى مرسمك.

وتزداد دهشته: هل تدركين معنى كلامك هذا؟ كما لو أنك تغارين من نجاحى!، لا أكاد أصدق ما أسمع .. إنك زوجتى .. تحملين اسمى .. من ثم كان خليقا بك أن تفخرى بنجاحى.

ـ كان هذا حقك علىّ لو أننى كنت ربة بيت أو مدرسة فقط .. الأمر الذى يجعل كل صفتى فى الحياة .. حرم الفنان فلان، أما وأنا

فنانـة مثلـك .. فـإن مـن حـق وواجـب كـل منـا أن يعمـل لبنـاء نفســه ومستقبله، بل كان من حقى أن أحظى بالرعاية والمساندة من زوجـى .. لو أننى تزوجت موظفا ينتهى عملــه فـى الثانيـة .. فيهتـم بالشـئون الحياتية ويوفر لى أن أتفرغ لفنى!.

حاول أن يهدئ من ثورتها فلجأ لممازحتها :

ـ نعم موظف له "كرش" يعود إلى المنزل العامر حاملا بطيخـة كبيرة!.

عاودتها المرارة التى ادخرتها طويلا فى دهاليز أعماقها المظلمة :

ـ طبعـا تضحـك. ومــاذا يمنعـك؟، ألـم تحقـق كـل أهدافـك.. علـى حســابى؟.

أحتد : لا .. لا أقبل هذا، انتقى كلماتك من فضلـك ولا تـتركى الغضب يجعلك تخطئين.

ـ لم يكن كلامى وليد غضب لكنــه قنـاعتى التامـة، إن الـتزامى بطلباتك وطلبات ابنك .. والبيت والمشـتروات و.. كـل شـئ .. شـغل جميع وقتى فأهملت فنى، لقد ظلمت فى هذا الزواج!.

ـ هكذا يا رجاء ؟ .. كأنك نادمة على زواجنا؟.

ـ لا تتصور إلى أى حد.

ـ لكنه تم.

- ما تم على خطأ يمكن - بل ينبغى - إصلاحه وتداركه.

- وكيف - بالله عليك - يكون ذلك؟.

- ننفصل.

- أجننت يا رجاء؟، وحبنا؟.

- حبيبك الذى يتسبب فى خسارتك .. هو العدو المبين!.

خبط كفا بكف : أنا تسببت فى خسارتك؟، لأننى أفوز بجهدى وموهبتى؟، إن زملائـى.. مجرد زملاء.. يهنئونى بهذا النجاح ولا يشعرون بالغيرة تجاهى .. وأنت ....

قاطعته : طبعا زملاؤك لا يضيقون بنجاحك لأنك لم تأخذ من رصيدهم الفنى لتضيف إلى رصيدك.

يصيح : مرة آخرى ترددين هذه الترهات ؟

- ليست ترهات، ألا ترى أنه لم تكفك أحمال مسئولية المنزل تلقيها على كاهلى.. فصممت على الإنجاب لتزيد الأحمال ثقلا، ومازلت تضغطنى معها حتى انكفأت فوطئت أنت كتفىّ بقدميك لكى تزداد فوقهما علوا.

صفعته كلماتها، هرول يخرج من المنزل غاضباً وهو يهدر:

- أظن أننى لن أستطيع أن أسمع أكثر من ذلك!.

للحق أنه ــ رغم غضبه من كلامها ــ لم يفرط فى الرابطة التى بينهما بسهولة .. لكنها ألحت وصممت، ثم تركت البيت، وفى المقابل حاولت والدتها وشقيقها والأسرة جميعا إثناءها عن موقفها لكنها ازدادت به تمسكا "فراقنا أصبح حتمياً .. كالموت، أحبه نعم .. لكن حبى لمستقبلى الفنى أكبر، هو جزء من حياتى .. أما فنى فهو حياتى كلها، الزوج والزواج ممكن أن يتبدل ويتكرر .. لكن خط الحياة الذى رسم منذ الطفولة وسرى فى الدم .. لا يمكن تغييره".

وكان لها ما أرادت، تم الطلاق، بدأت تحس أنها تسير خفيفة.. بل تكاد تطير من فوق الأرض بعد أن تخففت مما كان يثقل كاهلها، فوالدتها ـ رغم حيويتها الزائدة ــ لم يعد لديها ما يشغلها .. بعد أن خرجت إلى المعاش وتوفى عنها زوجها وزوجت إبنها .. من ثم كانت تقوم بكل شئون المنزل، شئون راشد الصغير تولتها بخبرة ودراية وحب وحماس.

طبعا تقدمت رجاء للمسابقة لكن .. كالعادة فاز رائف بالجائزة الأولى فى حين لم تفز هى بأية جائزة، لكن هذا ليس معناه أنها أخطأت التقدير، لم يكن معقولا ـ وقد جاءت فترة عملها فى اللوحة أثناء تركها المنزل بكل ما صاحبه من توترات ومؤثرات ومحاورات ـ أن تعمل بتركيز كامل، إنها تنتج فنا وليس رسما للمحمل على منزل حاج عائد من أداء الفريضة. لا بأس .. ليست هذه أول المسابقات ..

وبالقطع لن تكون آخرها، وإلى أن تأتى المسابقة القادمة تكون الخلخلة التى أحدثها الطلاق فى حياتها قد استقرت، كما الدوامات التى يحدثها حجر ألقى إلى الماء .. ما تلبث أن تتلاشى.

فى هذه الفترة تعرفت على الأستاذ صادق ... مدرس اللغة العربية الجديد فى المدرسة التى تعمل فيها، وأحست باهتمامه بها .. ذلك الاهتمام الذى كان يزداد كلما حدثته أكثر عن نفسها وعن لوحاتها.. التى أهدت بعضا منها للمدرسة، منذ شاهد تلك اللوحات وهو ينظر إليها بانبهار، قال لها إنها فنانة ممتازة .. بل هى ثروة قومية ينبغى رعايتها والمحافظة عليها، وتهيئة أنسب الظروف من أجل أن تتفجر موهبتها فينطلق إبداعها أكثر وأكثر، أجمل ما يسعد الفنان كلمات التقدير .. إنها الزاد الذى عليه يعيش .. وبه ينمو ويكبر، لذلك تفاهمت معه بسرعة وأصبحت أطيب أوقاتها تلك التى تقضيها معه.

الشهور تمر وهى متفرغة لفنها تنتهى من جدول حصصها سريعاً وتقفل عائدة إلى منزلها وفى الحجرة التى اتخذت منها مرسما تروح بحماسة وجدية ترسم وترسم، تحدوها ثقة شبه مؤكدة فى الفوز بإحدى الجوائز الأولى عندما يعلن عن مسابقة جديدة، وجاءت المسابقة.. وتقدمت بلوحة مبتكرة، لم تكن أجمل لوحاتها وحسب .. وأيضاً أكثر لوحة استغرقت منها جهداً ومعاناة، لابد أن تتفوق على رائف هذه المرة، قالت لها والدتها :

ـ مالك وإياه؟، لتكن أمنيتك أن تتفوقى على كافة المتقدمين، أم مازلت تفكرين فيه؟

دهشت حتى أنها لم تستطع أن ترد بغير تلك النظرة الحادة المحملقة، فى قاعة العرض دارت على جميع اللوحات، عم كانت تبحث بالضبط؟، وترد.. على لا أحد .. أو ربما على صوت من داخلها، طبعا لابد أن أبحث عن لوحة رائف لأطمئن على مستواى مقارنة به، لكنها لم تجد له أية لوحة .. مع أنه لم يكن يترك أى مسابقة دون أن يشترك فيها، وأحست بالقلق، وإذا كان عدم اشتراك رائف أمراً غريبا فالأغرب منه هذا القلق، كان المفروض أن تسر لغيابه.. الذى يجعل فرصتها أكبر، فمهما حدث بينهما لا تستطيع أن تتجاهل موهبته الفذة، وإذا كانت هى لم تفز بجواره بسبب انشغالها بالمنزل .. فماذا عن باقى زملاء دفعتهم وما سبقها وتلاها من دفعات؟، لم يتفوق واحد منهم قط عليه فى أى تنافس، وعادت ترد على الصوت الضئيل بداخلها "أمر طبيعى أن أقلق عليه .. أليس والد ابنى، ألم يكن بيننا خبز وملح و.. حب؟.

تجمع أكثر من زميل وزميلة، بعضهم مازال على صداقته برائف.. لكنها لم تستطع أن توجه إلى أى منهم سؤالا عنه، وإن تمنت من قلبها أن يجيء ذكره وسبب غيابه حتى ولو بصورة عابرة بين زميلين منهم.. لكن لم يحدث، عندما عادت إلى منزلها طلبته تلفونيا.. لكنها ارتبكت عندما جاءها صوته على الطرف الآخر..

فأسرعت تغلق الاتصال، وجدت نفسها تجهش بالبكاء،حمداً الله أن لم تشاهدها والدتها.. فبم كان عساها ترد عليها لو سألتها سبب دموعها .. وهى نفسها لا تعرفه؟!.

أخيرا ظهرت نتيجة المسابقة، لا .. لابد هناك أمر غير مفهوم، أو ربما تدخلت مصالح ومجاملات، شئ غير طبيعى بالمرة ألا تحصل على أية جائزة، لا الأولى ولا الثانية ولا الثالثة ولا .. الأخيرة، هذه اللوحة رسمتها بذوب وجدانها وعصارة دراستها وخبرتها، وما كان أجمل أن يقف الأستاذ صادق بجوارها يشد أزرها ويخفف عنها :

ـ لم تكن الجوائز أبداً مقياساً للتفوق، مع ذلك فستحصلين يوماً على أكبر الجوائز، هذا اليوم ـ بإذن الله ـ قريب جداً.

عندما تكررت نفس النتيجة فى المسابقة الثالثة .. نظرت إليها أمها طويلا ثم تمتمت:

ـ ألا ترين الآن أنك قد ظلمت رائف؟

كان هذا أكثر ما تخشاه، لم تحزن لعدم الفوز قدر تخوفها أن يشارك أمها التفكير أغلب الأصدقاء والاقارب، ردت عليها بمرارة:

ـ أمازلت تذكرين؟، لقد نسيت هذا الموضوع تماما.

في غرفتها ظلت على مقعدها حتى أنها لم تتنبه لهبوط الليل فتوقد النور .. وأمر واحد يشغل تفكيرها" غير صحيح أننى نسيت .. لكن كان لابد أن أقول هذا ما دام هو بالفعل نسى كل شئ، ألا يتعمد فى كل مرة يحضر لرؤية ابنه أن يتم ذلك فى الصباح عندما أكون أنا فى مدرستى؟".

طوال هذه الفترة وصلتها بالأستاذ صادق دائما وثيقة، وشبه اتفاق غير معلن بينهما على الارتباط، وإن كانت تستمهله دائما حتى تحقق ذاتها على طريق الفن، وهو بذات الحماس يوافقها مقتنعاً بأهمية هذا الهدف وحيويته بالنسبة لها.

يوما تقرأ فى الجريدة خبر قرب افتتاح المعرض الأول للفنان رائف، معرض خاص؟، وهو بعد فى هذه السن؟، وهى التى قلقت عليه عندما تخلف عن الاشتراك فى مسابقتين: طبعا كان يستعد للمعرض .. فلم تعد تلك المسابقات مناسبة لمكانته!، كم حلم بذلك المعرض.. وكم حلمت معه .. ستتولى هى تنسيقه ، ويرد عليها "لا أظن أنك سوف توفقين فى ذلك"، وقبل أن تغضب يعاجلها "فعلى سبيل المثال ما هى اللوحة التى ستضعينها فى الصدارة لو نسقت أنت المعرض؟" وتشير إلى أجمل ثلاث لوحات له "واحدة من هذه" فيضحك عاليا "ألم أقل لك لن تنجحى؟"، ويقترب من لوحتها الكبيرة التى رسمها لوجهها.. يربت عليها بحنان وهو يستطرد "هذه ستكون

لوحة الصدارة"، فيتبخر غضبها فوراً ويتعانقان، ترى في أي ركن مهمل تقبع تلك اللوحة الآن؟.

ويفتتح المعرض.. ويحقق نجاحا رائعاً، في كافة الجرائد يثنى عليه نقاد الفن الكبار، في أوساط الزملاء .. الكل يتحدث عنه بانبهار، كم تتلهف لمشاهدته، لكنها مع الأسف كانت لهفة مقصوصة الجناحين، إنها فنانة .. يهمها مشاهدة معرض ناجح، وثمة أمر آخر .. كثير من اللوحات الأولى لرائف ــ قطعا ستكون ضمن المعروضات ـ لها عندها حنين وذكريات، عندما كان يرسم وهي بجواره .. تهيئ له الجو المساعد ... تحضر إليه بعض الشطائر والمرطبات، وقد يسخن الجو وهولا ينتبه إليه فتروح تجفف عرقه.

لكنها تكبح جماح رغبتها طوال أيام المعرض .. وحتى اليوم الأخير، عندما تفاجئها أمها بذلك السؤال "متى تحبين أن نحتفي بعقد قرانك على الأستاذ صادق؟' لتجد نفسها تضطرب ظهراً لبطن .. أمر غريب، ليس الموضوع جديداً... لقد تحدثا فيه أكثر من مرة، واتفقا على بعض ما يتعلق به، فلماذا وقع عليها كالصاعقة عندما جد الجد وبدأ يدخل طور التنفيذ؟، أحست كأن كل ذرة في جسدها ترتعد فرقا.. تمتمت:

ـ حسناً يا أمي .. عندي زيارة سريعة .. ثم أعود لأحدد لك الموعد.

مضـت تسير بسيارتها علـى غير هدى .. تصافحها أسـماء الشوارع وأرقام المنازل، دخلت أحيـاء كثيرة وميـادين متعـددة .. ثـم خرجت منها، حتى وجـدت نفسـها أخيراً أمـام معـرض رائـف، رأتـه يقف قبالة الباب .. لابد ينتظر أحدا، ترى من يكون؟ هل هو شخصية خطيرة إلى حد أن ينتظره باهتمام هكذا؟، إلتقت عيونهما فأسرع إليهـا .. تماسكت اليدان فترة دون كلمات، لكأنه كان ينتظرها هـي ولا أحـد سواها، حيث اصطحبها ودخلا القاعة متـأبطين، وحمـداً اللـه أن فعـل فقد استطاع أن يسندها عندما كادت تترنح وتقع على الأرض.

كانت لوحتها التى رسمها لوجهها تتصدر المعرض!.

يسير ويسير، أما لهذا السير من آخر؟، لماذا اختاروه هو بالذات لهذه المهمة؟، تعود أن يوكل له دائما المهام الصعبة، لكن هذه المهمة؟، يا الله، أم كلفوه بها لأنها من بلده؟، بدأت أقدامه تغوص في التراب، قالوا له على مسيرة عشر دقائق من المحطة، لكنهم لم يقولوا بالضبط مسيرة من .. أو ماذا؟، ربما يقصدون مسيرة دابة.. أو سيارة، أو ربما طيارة!!، له أجيال يسير، الجو قاتم .. مثل مشاعره.

أخيرا استطاعت الشمس أن تبزغ من بين السحب، ربما كان هذا هو المنزل، ما كل هؤلاء الأطفال؟، يملأون الفناء، كثيرون جداً، لا يوجد أكثر منهم سوى الذباب؟، هذه الدرجات المهدمة، هل يمكن أن يعيش آدميون في مثل هذا المكان؟، كان يجب أن يصحب زوجته معه، حتى تكف عن الشكوى الدائمة من تواضع حياتها، فكر في النكوص على أعقابه .. لكنه شدد من عزيمته، عاد يسير وهو يقتلع قدميه اقتلاعا، بدا الفقر وكأنه تحول إلى أوحال تعرقل سيره وتمسك بأقدامه، سأل بعض النسوة في الفناء فأشرن له على الغرفة، دخل ليجد الفقر قد سبقه أيضاً إلى هناك، حيث وقع ببصمته على كل شئ فيها .. الأثاث .. ملابس الأولاد .. الخ الخ.

ليته اعتذر عن هذه المهمة، يستطيع أن ينسحب قبل أن يبدأ، أوه .. فات الوقت، جاءت تهرول، وفي ذيلها عدد آخر من الأولاد،

يبدو أنها كانت تعجن، مسحت يديها فى ثوبها قبل أن تسلم عليه، فبدا الثوب الذى كان أسود فى يوم من الأيام.. وكأنما قد غطى بنقوش سريالية بيضاء، "بربشت" بعيونها القرعاء من أية رموش وهى تحاول أن تبتسم:

ـ قالوا لى إنك من طرف عبد الله، أرجو أن يكون قد أرسل معك قرشين.. ليس معى ولا خردة .. بل إننى استدنت من بعض المعارف، لماذا تأخر علىّ هذه المرة؟، ألا يعرف أنه قد ترك وراءه أولاداً يأكلون الزلط؟، ثم إننى لا أرى فى يدك سوى لفافة صغيرة.. بعض الشئ، أهذا كل ما استطاع أن يرسله للأولاد؟ وأين الدواء الذى طلبته منه لسالم؟، إذا كان يعتمد على النقود التى أرسلها معك فقل له إن النقود لن تفعل شيئاً، الدواء غير موجود هنا، على فكرة .. هو .. كيف حاله؟، هل مازال الضعف يعاوده؟، ومرتبه .. هل زاده ذلك الرجل الذى لا يعرف الله أم لا؟، قال لى فى آخر مرسال إنه قد طلب منه زيادة .. فهل أجابه لطلبه؟، العمل ثقيل يمتص عافيته كما قال لى، حار ونار فى جنته الأبعد، يستحل عرق عماله ولا يعطيهم إلا الفتات، إننى أسألك وأنت لا ترد على بكلمة.. الفأر بدأ يلعب فى عبى، مصيبة لو لم يكن قد أرسل معك نقودا، ربما مرض هذا الشهر فلم يعطه الرجل الظالم مرتبه.. وإذن ماذا عساى أفعل؟، إننى انتظر مرساله كل شهر بفارغ الصبر.. لأكف الأيدى الممدودة تجاهى وأغلق الحلوق المفتوحة حولى.

ـ النقود معى يا سيدتى، فلم جئت إذن؟ ... لكن .....

سكت قليلا فتنهدت هى :

ـ الحمد لله، لكن أخبرنى .. ألم يقل لك إنه سيحضر قريباً؟، جميع العمال زملاؤه يحضرون كل بضعة أشهر إلا هو .. سافر منذ عام ونصف تقريبا ومن يومها لم يحضر ولا مرة، ليكن .. السفر يكلفه مالا ومطالبنا أولى، عندنا بنت على "وش جواز" .. وابن آخر قال الطبيب إنه يحتاج لجراحة ولا توجد أسرة شاغرة فى المستشفى الحكومى، أخشى لو تأخرنا بضعة شهور أخرى أن تسوء حاله أكثر، لو كان ما أرسله معك أكثر مما نحتاجه لمصروفاتنا الشهرية فسأحاول أن أدخله مستشفى الدكتور قدرى فى المديرية، ولو أن أجره فظيع ... إننى لأتساءل .. هل هم فى هذه المستشفيات يعالجون الناس أم يذبحونهم؟، على العموم المال يروح ويجئ.. المهم صحة ابنى، وجهاز شقيقته يستطيع الانتظار عدة شهور أخرى، ولو أن الاتفاق كان أن يرسل بعض الأقمشة للتنجيد والمفارش والفساتين من هناك.. حيث الأسعار أقل والأذواق أجمل، ابنتى تريد طبعاً أن يحوى جهازها أشياء جميلة حتى تخرس ألسنة أهل العريس.. خاصة عمته الحاجة رضا.. يا حفيظ من لسانها.

عادت تنظر للفافة التى فى يده .. وتفكر فى الأشياء التى كانت تنتظرها منه فتراها جد صغيرة، قالت بأسف.

- يبدو أنه قد نسى .. أو أجل هـذه المشـتروات للشـهر القـادم.. أسعدك الله يا أخى تذكـره بطلبـات جهـاز إنصـاف، جـيرانى يظنونـى متجلدة بعد سفر عبد الله، لكن داخلـى يتمـزق .. ينسـحق .. مـع ذلـك أوافقه على عدم الحضور إدخاراً للنفقات، فعدا كل هذه الطوارئ التى ذكرتها لك هناك أمر آخر مهم جداً، أريده أن يفك رهن القيراط الـذى ورثته عن عمتى، أهله طبعا سيثيرون الدنيـا لكـن بربـك .. مـاذا فـى ذلك؟، أليس هو.. رجلى .. وأبو أولادى .. الـذى سـيزرعه .. وننعـم كلنا من خيره؟.

كان يدهش وهى تتكلم .. ألا تتعب من الكلام؟، فجأة سكتت .. لابد أدركت أخيرا بعد طول عتابها عليه لعدم رده على أسئلتها .. إنها لم تترك له فرصة لذلك، والتفت ناحيتها .. لم يجد عينيها مغروستين على جانبى فمه فى محاولة لاسـتنطاقه كمـا توقـع، كـانت تتطلـع إلـى السقف.. فى نظرة حالمة، كأن مساحته الضيقـة قـد كـبرت وكـبرت.. حتى وسعت القيراط بأكمله.. وبداخله أولادها جميعا يسـاعدون أبـاهم فى جمع المحصول الوفير، تنهدت.. ثم عادت تتكلم وقـد رق صوتهـا ومـلأه الحنـان .. والحنيـن، لـم يكـن يتصـور أن توجـد هـذه المشـاعر الرقيقة خلف هذه الملابس الخشنة!!، كانت تقول وكأنها تحدث نفسـها بأكثر مما تحدثه هو :

- مسكين عبد الله ... الحمل ثقيل عليه، وأنا مسكينة أكثر منـه .. حيث أعيش بعيدة عنه، بعيدة عـن الإنسـان الوحيـد فـى هـذا العـالم

الذى قلبه علىّ.. أكثر من أولادى الذيـن حملتهم داخـل أحشـائى، كـل واحد منهم لا يهمه إلا ما سيأخذه منى، بل أكثر من أبى نفسه.. الـذى أنجبنى إلى هذه الدنيا، كان كل همه أن يزوجنى .. حتـى يخفـف عـن كاهله عبئى، لم يسألنى يوما عما إذا كان هناك ما أشكو منه، لا أنسى نظرات عبد الله وأنا أوزع الطعام علـى الأولاد يـوم السـوق .. يدقـق جيداً فيما وضعته فى طبقـى، ويتشـاجر معـى إذا وجـده لا يزيـد عـن بعض الشغت أو العظام، يقسم أيمانا مغلظة إنه لـن يـأكل شـيئاً إلا إذا أخذت نصيبا يسـاوى علـى الأقـل نصيـب كـل واحـد مـن الأولاد، مـا تأوهت ليلة إلا انتفض من نومه يسألنى عما بى، أحاول ــ مهمـا كـان ما أعانيه ـ ألا أقول آه.. حتى لا أزيد همومه همى أنا الأخرى، حيـن فكر فى السفر وافقتـه عليـه.. بـل شـجعته، أكـثر مـن ذلـك درت هنـا وهناك أسأل بعض من أعرفهـم المعاونـة فـى ذلـك، رغـم أننـى كنـت أعرف جيداً ما يعنيه سفره بالنسـبة لـى .. لكـأننى قطعـت جـزءا مـن قلبى وأرسلته بعيدا.. إلى ذلـك البلـد، بعـد سـفره أحـس كمـا لـو كنـت أجلس وحيدة فى العراء.. فى صحـراء موحشـة قاحلة، وكأنه هو كـان الخيمة التى تغطينى وتظلل علىّ ..كان الأمان، كما كان الحائط الـذى إليه أسند ظهرى عندما أنشد قسطا مــن الراحـة بعـد طـول عنـاء، كـم أفتقده، من يوم سفره لم أجد أحـدا يسـألنى عمـا أعـانى، إننـى حتـى لا أجد أحدا أحدثه، لى شهور لم أحدث أحدا.. ولذلك أتحدث اليوم كثـيرا هكذا، أطلق ما اختزنته طويلا، لماذا أحدثك أنت بالذات؟، هـل لأننـى

إذا حكيت لك عن آمالى فلن تحسدنى مثل معارفى .. حيث أنت طبعا تقبض مثلما يقبض؟، وأيضا إذا ذكرت لك آلامى فلن تشمت فى مثل جاراتى اللاتى يتشاجرن معى دائما من أجل الأولاد .. أولادى وأولادهم؟، أم لأنك حضرت من طرفه فأنت إذن تحمل رائحة الحبايب؟، أجل الحبايب.. ربما كنت أخجل أن أقولها لأى شخص آخر لى به أية علاقة، كم يخطر لى أحيانا أن أرسل إليه أن اقطع عملك هناك وعد فورا .. ولنأكلها بالملح ، إننى كأى امرأة أخرى يشبعنى الحنان بأكثر من الطعام، لكننى أعود وأتذكر الأولاد، إنها لتكون أنانية منى أن أبقيه بجوارى .. أسعد بقربه.. وأحرم أولادى من متطلباتهم الضرورية، أفضل أن أحرم نفسى أنا، إنك لن تستطيع أبداً أن تعرف ماذا يعنى حرمان الشخص من قلب يحنو عليه ويهتم بأمره .. لأنك رجل، طبعا الرجل أيضا يحتاج للحنان والاهتمام .. لكنه بدرجة أقل.. عند المرأة يأتى ذلك فى المقام الأول .. تستطيع أن تسأل فى ذلك زوجتك، أوه .. يا إلهى .. لابد أنك قد تأخرت عليها، أطلت الحديث معك بينما هى - لابد - الآن تنتظرك على نار..

ضحكت، مديده وناولها مرتب زوجها دون أن ينطق بحرف، نهض واقفا ومشى خطوة واحدة .. ثم عاد وكأنه يستدرك شيئاً فاته، فتح اللفافة التى معه وأخرج كل ما كان بها من ملابس ولعب وحلوى.. كان قد أحضرها لأولاده هو .. وقدمها للمرأة القابعة أمامه.

جمعت المراة الأشياء كلها بين ذراعيها .. ضمتها إلى صدرها .. تنبهت فجأة أنه يهم بمغادرة الغرفة .. هتفت به :

- ألا تشرب الشاى؟

رد عليها :

- فى المرة القادمة ..

جرت وراءه على السلم وهى تصيح :

- بلغ عبد الله فرحتنا الكبيرة بالمشتروات .. وأنه قد أوحشنا جداً، لا حرمنا الله منه أبداً ... أبداً.

خرج إلى الخلاء كانت قد بدأت تمطر .. وكأن السماء تبكى بدورها حزنا وأسى وحسرة .. على الكارثة التى أصابت .. أرملة المرحوم عبد الله، أخرج ورقة من جيبه .. مزقها وهو يتمتم :

- لم أستطع أبداً .. فوق طاقتى .. ليرسل الحاج إليهم شخصاً آخر .. بالخبر المشئوم!.

كانت ترتب دولاب طفلها عندما سمعت رنين التليفون، رغم خفوت الجرس الا أنه كان واضحا أنها المكالمة التى طلبها زوجها لمنزل أسرته بالصعيد .. أسرعت تنهى ما بيدها لتدرك المكالمة قبل انتهاء الدقائق الثلاث، فى مرات سابقة لم تكن تحرص كل هذا الحرص على أن تشارك "محفوظا" فى حديثه مع والدته .. هذه المرة الأمر مختلف. حيث كان محفوظ قد أخبرها برغبته فى دعوة والدته لقضاء بضعة أيام فى ضيافته، طبعا أظهرت له كل الترحيب .. أكثر من ذلك فكرت أنها لو ضمت صوتها لصوت زوجها فى توجيه الدعوة إلى الأم الغالية فلا شك ستكون لفتة رقيقة. وهى تضع يدها على مقبض باب غرفة المكتب أتاها صوت محفوظ يحادث والدته بتوسل :

- أرجوك يا أمى .. لابد من حضورك لتحدثى "راضية" .. رغم كل محاولاتى معها كى تترك عملها فإنها لم تقتنع .. من يدرى ربما استطعت أنت اقناعها حيث إنكما..

استردت يدها من فوق المقبض دون أن تفتحه.. لتعود أدراجها الى غرفة صغيرها وهى تنتفض غيظا وغضبا.. أمن أجل هذا دعا والدته..؟ مؤامرة هى إذن.. تمتمت وهى تصرف على أسنانها:

– ما شاء الله يامحفوظ.. تدعو أمك من أقصى الصعيد كسفيرة فوق العادة كى ترشدنى الى الطريق الصواب الذى لم أكن أنا لا ستطيع ـ دون مشورتها ـ أن أصل اليه!! أمر غريب حقا.. إنك هكذا تجعل الجهل يقود العلم.. والحضارة تتبع التخلف!..

فجأة وجدت صورة شقيقتها (عزة) تطفو على سطح ذاكرتها.. تساءلت بقلق:

– ترى هل كانت عزة على حق؟..

منذ بدء تعارفها بمحفوظ لم يكن الأمر يتطلب فراسة خارقة كى تدرك أن نظرته رجعية بعض الشئ لكن خطورة تلك النظرة لم تتبد بجلاء الا فى بداية فترة خطوبتها.. عندما راحا يوماً يرتبان لبعض أمور مستقبلهما، وإذا به يفاتحها : سأعرض عليك اقتراحاً وأرجو ألا تسرعى فى الرد عليه .. ما رأيك أن تتركى عملك بعد الزواج ؟ ..

وعندما شهقت مستنكرة بادرها :

ـ طلبت منك أن تفكرى فى الأمر بروية ..

ـ أن رأيى الفورى هو نفس رأيى لو ظللت أفكر ألف عام ..

ـ أرجوك أن تسمعى وجهة نظرى، أن مجرد خروج المرأة للعمل ـ فما بالك بالعمل ذاته ـ مرهق للجسم والأعصاب .. بهدلة

وقلة قيمة .. بعض النساء يكن مضطرات، تعرفين أن راتبى كبير .. فما الداعى لعملك الذى سيكون قطعا على حساب أنوثتك ؟

ـ وأنت أيضا تعلم أن دخل والدى يكفينا وزيادة .. ولكنى أعمل كى...

قاطعها : الامر يختلف .. عندما تعمل الفتاة فربما من أجل أن تشغل وقتها .. أما بعد زواجها فالتزامات بيتها وأسرتها يمكن أن تستوعب كل وقتها ..حينئذ لا يكون هناك ما يدعوها للعمل إلا إذا كانت تحتاج إلى راتبه.

ـ أو تبغى تحقيق ذاتها ..

ـ دعك من هذه الشعارات الجوفاء. التى أطلقتها نسوة فارغات الوقت والعقل!.

يومها طال الحوار بينهما حوالى الساعة حتى أنهته هى :

ـ ما أود أن أقوله لك إننى أحب عملى إلى درجة لا تتصورها .. ان عمل محللة نظم برامج على الكمبيوتر فى مؤسسة كبرى كمؤسستى يمكن أن يصبح هواية ممتعة .. ذلك إلى جانب احساسى بأهميته كتكنولوجيا متطورة تساهم فى تقدم بلدى ..

بسط كفيه باستسلام :

ـ حسنا .. حسنا .. مازلت متمسكا برأيى فى عمل المرأة عندما يكون عملا روتينيا عاديا ... أما ما دمت تحبين عملك هذا الحب وتشعرين له بهذا المتعة والأهمية .. فبالقطع الأمر مختلف.

عندما روت راضية هذه الواقعة لأختها الكبرى عزة .. هزت الأخيرة رأسها محذرة:

ـ هذه بادرة لا تبشر بخير .. وأرى أن تستوثقى من آرائه وأفكاره قبل اتمام الزواج .. خشية أن يكون حبه لك هو الذى جعله يوافق الآن فقط حتى لا يفقدك . ثم تحدث له النكسة المحتومة عندما تصبح مقاليد الأمور كلها ــ فى يده !..

لكن راضية لم تجد فى حديثه أو تصرفاته طوال فترة الخطبة ما يؤكد مخاوف عزة .. التى ردت عليها ضاحكة :

ـ أدعو الله أن يكون الأمر كذلك حقا .. ولا يكون حبك له أنت بدورك ـ الذى لا يخفى على أحد ـ هو الذى صنع عصابة إلى عينيك.

ضحكت راضية أيضاً: أوه .. لا تكابرى .. أعرف أنه من أصعب الأمور على شخص أن يعترف بخطئه لكن ليس أمامك سوى ذلك!.

بعد الزواج لم تجد منه فعلا أى تبرم من عملها، للحقيقة لم يكن له أن يتبرم قط !.. فمن جانبها فعلت المستحيل كى توفق بين عملها ومنزلها، بحيث لم يشعر الزوج المحب المحبوب بأى نقص فى

شئونه البيتية أو شـئون طفلهـا الأول، وكـان لعزيـزة فضـل كبـير فـى هذا، شغالة ممتازة، أو علـى الأصـح كـانت، فمـا أسـرع مـا أصابتهـا العدوى من ميكروب المادية اللعين، فتركتها من أجـل حفنـة دينـارات فى شقق الوافدين العرب.

بعد استقالة عزيزة ورد عليهـا العديـد مـن الشـغالات.. وطبعـاً كان يقع على أخراهن جزء كبير من مسئولية اصابة (وليد) الغالى .. حيث تركت باب الشرفة الكبرى مفتوحاً.. فدخلها وليد ليحاول ركوب دراجته وحده . فكان أن سقط من فوقها وأصيب بالتواء فى قدمه .... عدا بعض الرضوض وقامت قيامة محفوظ ولم تقعد، طبعاً ألقى اللـوم على خروج زوجته للعمل. مؤكدا أن الأمومة تستدعى التفرغ تماماً، قال لها إن الله قد لطف بهما هذة المرة فالتوت ساق وليد وليس رقبته .. لكـن مـن يـدرى مـا يكـون الأمـر فــى مـرة تاليــة، وعلــى مـدى الأسبوعين اللذين أخذتهما اجازة لتمريـض ابنهـا ظـل النقـاش محتدمـاً بينهما حول تركها العمل أو استمرارها فيه.. لكن احدا منهما لم يقتنـع قط بأى حجج يسوقها الآخر، إلى أن فاجأهـا يومـا برغبتـه فـى دعـوة أمة لقضاء أسبوع فى ضيافتهما، أردف فى لهجة ساخرة:

ـ فرصــة تحضـر وأنـت فـى الاجـازة .. حتــى لا تكشــف انهـا تجشـمت عنـاء الحضـور مـن بلدتهــا البعيــدة كــى تــأتنس بصحبـة السـيدة المبجلـة وهيبـة الشـغالة!.

تغاضت راضية عن غمزته المقصودة وراحت ترحب بالغالية ام الغالى ضيفة عزيزة مكرمة، صادقة كانت فى هذا الترحيب حتى انها رأت ألا تكتفى بدعوة محفوظ وحدها لأمه .. وانما صممت أن تدعوها هى الأخرى بنفسها، وإذا بها تكتشف أن محفوظ قد رتب هذه الزيارة لغرض فى نفس يعقوب، لفرط غضبها قررت أن تترك المنزل كلية إلى منزل والدتها خلال فترة الزيارة الموعودة!.

أخبرها محفوظ أن والدته حددت يوم الخميس القادم موعداً لحضورها.. من ثم اصطحبت راضية طفلها إلى منزل والدتها صباح الأربعاء على وعد لزوجها بالعودة فى المساء، بعد أن بيتت على التظاهر بآلام أزمة الكلى المبرحة .. الأمر الذى يحتم ملازمة الفراش حيث هى، بعد الغداء دخلت غرفتها - السابقة – لتتمدد قليلاً .. حيث راحت تراجع نفسها فى فكرتها.. لتقتنع أخيراً أنه سيكون فيها تصرف سخيف يتنافى وأبسط قواعد الذوق واللياقة.. خاصة وحماتها تزورها لأول مرة منذ زواجها.. قالت فى نفسها انه مهما كان تخلف تلك الحماة فهى لن تستطيع ارغامها على اتخاذ خطوة لا ترغبها والتصرف الأمثل ان ترفض نصيحتها برقة .. فإذا وجدتها تصر على مناقشة الموضوع يمكنها إيقافها بحزم .. أو حتى ترك المكان لها متعللة بأى عذر.

مر اليوم الأول من الزيارة على خير حيث كان حافلا بالتحيات والسلامات والقبلات وتقديم فروض الشكر الجزيل على

الهدايا القيمة، فى اليوم التالى التأم شمل الأسرة على المائدة.. لتلاحظ راضية على وجه زوجها امارات الحيرة والانشغال والتأهب لأمر هام.. فأحست أنه ينوى تحويل المأدبة لغداء عمل .. بإثارة موضوع الساعة لديه خلالها .. صدق حديثها عندما تنحنح عدة مرات قبل أن يقول موجها الحديث لوالدته:

ـ بعد حادثة وليد اقترحت على راضية أن تترك عملها .. أو حتى تأخذ اجازة بدون راتب بضع سنوات .. كى تتفرغ للعناية به .. ما رأيك يا أمى .. أليس ذلك أفضل!..

نقلت الأم نظراتها بين ابنها وزوجته عدة مرات قبل أن تقول بتؤدة ..

كان المفروض أن تسويا هذا الأمر بينكما .. لكن مادمت قد طلبت رأيى فإنى لا أمانع فى عرضه، فقط أسألكما .. هل أنتما على استعداد لأن تأخذا به؟

اندفع محفوظ يهتف بحماس

ـ طبعاً يا أمى .. بكل تأكيد نحن نثق فى حكمتك وتجاربك.

فى حين تشاغلت راضية بشرب كوب من الماء .. ويبدو أنها كانت تحاول "تبليع" كلمات لا تعجبها، لم يفت الأمر حماتها فقالت بابتسامة هادئة:

- راضية لم ترد .. عموماً يكفينى تأكيدك أنت..

قالت راضية فى نفسها "أول القصيدة كفر .. فمعنى كلامك أن موافقتى وعدمها سيان!"، مع ذلك ظلت تتخذ من ابتسامتها ستارا يخفى ما بداخلها .. فى حين بدأت الأم تقول:

- أولا يا محفوظ ترتيب أو تحميل حادث وليد على عمل راضية أمر فى غير محله على الاطلاق .. فهذا الحادث - والحوادث المنزلية عموماً - أمر وارد دائما حتى مع تفرغ الأم .. بل ووجودها بالمنزل .. فهى قد تنشغل فى المطبخ أو تدخل الحمام أو تتحدث بالتليفون .. والا فهل تنتظر منها أن تربط طفلها فى ذيلها ..أو أن تضعه فى جراب مثل القنغر؟!..

لم يضحك محفوظ ولا راضية حيث بهت الاثنان.. فاضطرت الأم أن تضحك هى نفسها على مزحتها ثم تعاود الحديث :

- المهم أن تبذل الأم جهدا فى تدريب شغالتها على مراعاة الطفل جيدا.. أيضاً هناك دور الحضانة إذا لم تفلح فى ذلك تماما، واضح طبعاً أن راضية ليست "راضية" عن ترك عملها، وأنا أؤيدها بكل قوة.. فالعمل هو الذى يشعر المرأة بقيمتها.. ينضج شخصيتها .. يثبت انسانيتها.. يعلمها الأعتماد على النفس فى مواجهة هزات الحياة وبدون العمل لا تزيد المرأة عن قطعة موبيليا فى البيت!!.

سقطت الشوكة من يد راضية لفرط ذهولها.. حيث فاق حماس الأم لعَمل المرأة حماسها هى نفسها .. التفتت الضيفة إلى ابنها:

ـ أنت لم تكن تنتظر أن يكون هذا رأيى .. ولا أى شخص آخر .. طبعاً .. فإن أحدا لـم يهتـم بـأن يعرف مـا بداخلـى .. مشـاغلى أو رغباتى، من صغرى أحببت القراءة .. تعرف جيداً أن هواية القراءة يمكـن أن يشـترك فيهـا أشـخاص علـى مسـتويات متباينـة فـى التعليـم والعمر والتحضر على حد سواء، وقد قرأت لكتـاب مصرييـن كبـار وأيضاً لكتاب عالميين وطيلة دراستى الابتدائية ـ وهى أقصى ما كـان يسمح به للبنات فى بلدنـا ـ كنـت أرتـب نفسـى إننـى سـأكمل تعليمـى الجامعى ثم أصبح صحفية!!، حتى استيقظت من أحلامى على الواقـع المر والتقاليد المتشددة .. التى كانت تجثم أيامها فوق أية فتاة صعيدية ليكون لها الدور الأول فى كل أمور حياتها دون أن تنتظر موافقتها .. يا إلهى يا محفوظ .. رغم ما وصلت إليه من تعليم تريد أن تفكر مثل أبـى .. وأبيك؟! انـى أحـذرك أن تضغـط علـى زوجتـك كـى تـترك عملها.. أنه فى صالحك أيضاً.. يشغلها عن التفاهات وجلسات السـوء وأحاديث النميمة فى الزيارات والتليفونات.!..

بعدها التفتت إلى زوجة ابنها محذرة :

– أنـت أيضـا يـا راضيـة.. إيـاك أن تضعفـى أو تستسـلمى.. بالنسبة لى كانت الضغوط أقوى منى بحيث لم تترك لى الا الانصيـاع

.. وضعك أنت مختلف..الزمان والمكان فى صالحك، ويمكنك اعتبارى محاميتك، حيث بعد زواجى آليت على نفسى - إذا ما أعطانى الله بنتا - أن أخوضها حربا حتى لا تحرم مما حرمت منه أنا.. لكنى مع الأسف لم أرزق سوى البنين.. مع ذلك يبدو أن الحرب ما زالت مقدرة على .. وكل ما فى الامر اننى سأخوضها مع زوجة ابنى..

قامت راضية من مكانها واندفعت تقبل حماتها.. وهى مطمئنة... حتى إذا لم يكن محفوظ قد أقتنع بحديث والدته الذى جرى خلال غداء العمل هذا .. فهو لابد سيفعل فى أقرب وقت، بعد انضمام هذا الحليف القوى إليها يصبح كسب قضيتها أقرب منالا.

استيفا..

عندما سمعها من رئيسه لأول مرة ظنه يريد أستيكة. ربما يحبها لسبب ما فيدللها.. كأولاده. أيضا ليس هناك قانون يمنع أن يكون رئيس القلم "أخنف" بعض الشئ...!

آه..استيفا..

– كل هذه الدوسيهات التى أمامك طلبات استيفا.. من شتى الجهات.. كان على المكتب أكوام وأكوام.. صبحه الله بالخير سلفه.. لا يهم أين القت به المقادير لكنه بالتأكيد كان كسولاً.. حتى ليترك وراءه كل تلك الأوراق بدون بت. أقبل عليها يتصفحها بعناية ودقة بالغتين ثم بدأ يعمل فيها قلمه.. بهمه خريج جديد أهدته للبلد احدى جامعاتها .. منحته مع الاجازة شحنات كبيرة من الاقدام والثقة والتفاؤل والمرح. كل يوم لا يغادر مكتبه حتى يكاد ينتهى من جميع ما أمامه لكنه يعود فى اليوم التالى ليجد المكتب مكدسا كما كان.

كل هذه طلبات استيفاء؟.. استيفا لماذا؟ لإجراءات لا يعلم عنها شيئا سوى الله و..ناسج هذا الروتين العجيب! رغم ذلك كان يحاول ما وسعه جهده.

ظن أنه بالنظام يستطيع العمل أسرع.. فلينتهى من الدوسيهات كوما كوما.. أخيرا انتهى من الرزمة التى إلى يمينه..عجبا.. يرفع

رأسه عن الأوراق فجأة لـيرى كومـا آخـر قـد نبـت مكـان ذلـك الـذى أنجـزه.. وكلمـا ازداد عمــلا وجهـدا ازداد النبـت الشـيطانى نمــوا وارتفاعا. كأنه يرويه بعرقه.

لم تمض شهور حتى كان الشاب المتحمس شيئا آخر.. صبغتـه الوظيفة الحكومية بصبغة خاصة كغيره من مئات وألوف الأنماط التى لتبدو وكأن مصنعا واحدا..له قالب واحد قد قام بصبها جميعاً ... أيـن حيويته وشخصيته المتميزة من هذا الإنسان الآلى الذى عبأوه بشـريط صغير لا يحوى سوى كلمات قليلة يكررها دائما على سمع المترددين عليه.. طلب رسمى.. خاتم الدولة .. ثلاثة موظفون تزيـد مرتبـاتهم على ثلاثين جنيهاً .. ورقـة تمغـة.. ثـلاث صـور.. شـهادة إداريـة .. شهادة الميلاد..

على أن الإنسان الآلى كانت تدب فيه بين الحين والحين الروح فيثـور علـى الاوضـاع ويقـرر أن يحـرر نفسـه مـن ربقـــة كـل هـذه الدوسيهات.. عبثاً.. كلماً أنهى طلباً ونادى الفرّاش ليرحله أقبل يحمـل إليـه طلبيـن.. اسـتيفاء!، لـم يكـن هـذا طريقهـا الوحيـد.. أحيانـاً كـانت تنقض عليـه مـن السـقف واحيانــا اخـرى تـدب إليــه علــى الأرض كالحشرات السامة.. ولم تكن الاخيرة لتزيد عليها سما..

مع ذلك أقسم ذات يوم.. لن يبارح مكتبـه حتـى ينهـى جميـع مـا أمامه.. كانت عملية شاقة.. جدا.. جاء المســاء وأوقـد النـور.. انتصـف

الليل وأكل ساندوتشا صغيرا.. بدت تباشير الصباح وهو مـا زال يعمل .. لكن النتيجة كانت تستحق كل هذا العنـاء .. لـم يبـق سـوى بضعـة طلبـات متنـاثرة، أقبـل زمـلاؤه وبـدأوا يدردشـون ويـأكلون ويضحكـون كعادتهم.. لايوجد فوق مكاتبهم جميعاً نصف ما كـان ينـوء بـه مكتبـه.. يتفننون فى التخلص مما يأتى إليهم.. أيضا فإن مـا يـأتى إليهم لـم يكن كثيرا.. هو وحده المختص بطلبات الاستيفا.. وحتى إذا تكدست امـامهم الدوسيهات فانهم لم يكونوا يشكون.. لا ولاهم يعملون.. من أيـن يـأتون بكل هذا الذى يروونه؟. ما يحدث داخل بيوتهم وعلـى المقـاهى عصـر كل يوم زائد ما كتـب فـى جميـع الجرائـد الصباحيـة لاتسـتغرق روايتـه والتعليق عليـه نصـف سـاعات العمـل.. لكنهـم مـع ذلـك يمضــون فــى الثرثرة .. من الذاكرة ولا ريب .. أو من الخيال..!

صاح أحدهم فى ذلك الصبـاح والجريـدة بيـن يديـه يـا إلهـى .. السيول تغرق الطريق الصحـراوى.. فتـح البـاب فجـأة .. عجبـاً.. لـم يكن مكتبهم واقعا فى الرست هاوس فمن أين أتـت هـذه السـيول.. لـم تكن سيول ماء ولكن سيول.. دوسيهات.. اندفعت نحوه.. اضطر إلــى التشبث بمقعده حتى لا تجرفه أمامها اعتلـت السـيول المكتـب وهـدأت فوقه.. عادت الاكداس كما كانت قبل قسمه الرهيـب.. كـادت الدمـوع تطفر من عينيه.. أحس ساعاتها فقط بآلام فى جميــع أجـزاء جسـمه.. لعلها آلام الاجهاد وعمل الليـل بطولـه.. دون نـوم ولا أكـل.. بيـد أن الآلام كـانت أقسـى مـن مجـرد آلام ليلـة مرهقـة بـالعمل.. تشــبه الآم

شخص بدا محاولة لارتقاء جبل... قبل القمة بأقدام أفلتت قدمه وسقط مرة واحدة إلى السفح .. أخذ يدلك جسده المرضوض فى أكثر من موضع.. من أثر السقطة، عاد إلى التحدى ثانية.. مرة اخرى اقسم قسماً رهيباً لكنه مختلف هذه المرة.. اقسم ألا يمد يدا إلى أى طلب طيلة اليوم.. يعمل أو لا يعمل.. مكتبه دائما ممتلئ مكدس.. لا موضع فيه لقلم..

انفتح الباب ثانية وتدفق سيل آخر، سيل آدمى هذه المرة.. امتدت أصابع الزملاء جميعاً تشير إلى حامد .. فاتجه السيل إلى مكتبه يحاصره.. بالاجساد والاصوات :

- أين أوراقنا؟..

- رحلتها جميعاً..

- وماذا تم بها؟...

- لا أعرف عنها شيئا.. بوسعكم الاستفسار عنها من غرف الحفظ... كل فى منطقته..

- لا شأن لنا بما تنعته بغرف الحفظ هذه .. أنت الذى استلم اوراقنا..

- لكنى رحلتها.. رحلتها..

– لا نعرف سواك انت الذى أخذ طلباتنا وأنت الذى عليك اعادتها إلينا

الجميع يتكلمون فى صوت واحد.. الأصوات بدأت ترتفع..كاد يصيبه الدوار.. لم يعد يعى ما يقولون .. اصواتهم تطن فى أذنيه .. معالم وجوههم كادت تضيع امام عينيه .. لم يعد يرى منهم سوى افواه مفتوحة.. داخلها ألسنة تدور وتدور.. كأنها تريد أن تنفلت من حلوقهم لتجز رقبته.. اسرع يدس أصابعه وعينيه داخل الدوسيهات المكدسة.. قلبها رأسا على عقب.. عثر على ضالته أخيراً :

– ها هى اوراقكم.. عادت إلى مرة أخرى صباح اليوم..بطلبات استيفا.. تنقصها مستندات عديدة حتى تصبح مستوفاة.. لماذا لم تستكملوا أوراقكم من أول الأمر راحة لى ولكم..

– ومن أين لنا العلم بما هو مطلوب.. لماذا لم تقل أنت لنا؟

هو أيضا لا يعلم.. بل لا احد على الاطلاق يعلم بالضبط ما يطلبون، حيث لكل جهة طلباتها وشروطها التى تختلف كثيراً عن طلبات وشروط الجهة الأخرى.. وكل مدير يفسر – بالقدر الذى يتصور أنه يخليه من أى مسئولية– مواد القانون تفسيرا خاصاً، يعود اصحاب الطلبات يدورون بين المصالح الحكومية المختلفة.. ممتثلين امام موظفين اخرين ليأتوا آخر الأمر بأوراق جديدة يقدمونها لحامد.. يضم حامد الأوراق الجديدة إلى السابقة التى كانت تحويها الطلبات

ليرحلها وهو يتنهد.. ها هو يخلص من مجموعة أخرى من الدوسيهات.. لكنها كانت أوفى كثيراً مما ظن.. عادت إليه نفس الدوسيهات – كما تفعل كل الدوسيهات – وعليها طلبات استيفاء جديدة من جميع الهيئات.. ما يخطر منها على البال وما لا يخطر.. مراكز الصحة.. الدوائر المدنية.. الشهر العقارى.. غرف الحفظ .. اقسام البوليس.. مصلحة الضرائب ، يوما تساءل بدهشة:

– ومصلحة الضرائب ايضا..؟

ويرد رئيس القلم:

– طبعاً .. أليس من الجائز أن على الطالب ضرائب يريد التهرب منها بتغيير اسمه؟ ..

ويسأل :

– ومجزر القاهرة.. أليس له اتصال بعملنا هو الآخر؟!..

كلفته هذه السخرية كثيرا.. لفت نظر من رئيسه، عندما سأل هذا السؤال كان بين يديه أحد الطلبات.. كتب امام جهة الصادر.. مجزر القاهرة..عليه بعد ذلك أن يكف عن التحدث فى أى شئ أثناء عمله عدا هذه الكلمة "استيفاء!.." ولا بأس ببعض المشتقات والمترادفات.. استفانوس .. استيفان .. ستيف.. استيفانا..! كيف حدث أن هذه الكلمات تجسدت حتى أخذت تدور أمام عينيه بشراسة وهى تطن كسرب من النحل .. أخلقها هو لتهاجمه؟!.. لم يملك أن راح

يحرك يديه كلتاهما بشدة ليهشها بعيداً عن وجهه.. لفتت حركته انتباه زملائه فتوقفوا عن الحديث برهة ثم عادوا إليه.. دون سؤال!..

خسارة..خسارة كل ما درسه بالكلية.. نواحي النشاط الفني والرياضي والادبي.. الاساتذة الاجانب الفطاحل الزائرون.. بعد كل هذا العناء والتحصيل يجلس خلف مكتب صغير لتلقي طلبات الاستيفا حيث يبلغها إلى اصحابها.. كان يعد نفسه ليكون من قادة المستقبل.. يسهم في تقدم بلده بدور ايجابي محسوس.. قبل الوظيفة بكامل اختياره..السبب كلمة.. كانت كلمة مخلصة.. ومن أخلص من فؤاد عزمي؟..

بدأ يتقدم زاحفا دون أن يند عنه أدنى صوت.. الظلام دامس حتى أنه لا يستطيع أن يرى زميله وقائد كتيبتهم فؤاد..فجأة انفجرت قنبلة.. أسفل أذنه تماما فأصابته بالدوار.. نفس ما حدث يومها بالضبط.. برغم أن قنبلة اليوم لم تزد على أوراق، كتم ثورته..الفراش معذور.. يعرف جيدا أنه يشكو من روماتيزم مزمن في ذراعيه.. عدا أن الدوسيهات كانت جد ثقيلة.. وسقوطها منه على الأرض حدث ـ بالتأكيد ـ رغما عنه..

ربت فؤاد عزمي على كتفه:

ـ لست أدري كيف تأسى لعدم استطاعتك بعد مشاركتنا في العمليات .. حتى بعملك في الامداد والتموين هنا في بورسعيد تسهم

فى معركة النصر.. الجيش نفسه ليس مكوناً من حاملى السلاح فقط .. الأطباء والمهندسون والبيطريون جنود كذلك.. حتى المطربين بأغانيهم الحماسية لهم دورهم الملموس أيضاً.

ازاح يد الفراش عن كتفه بغضب :

ـ عدد ما شئت ولكن لى استثناء واحد .. دواوين الحكومة ..

بهذا التعقيد العجيب لا يمكن دفع عجلة التقدم .. العكس هو الصحيح.. يعرقلونها .. وهو .. لا يستطيع نبذ الطرق الملتوية إلى اخرى مستقيمة يراها تمام الرؤية .. يقف مكتوف الذراعين امام اصلاحات فى متناول يده لكنها ليست فى متناول حقوقه .. أو بالأحرى واجباته .. كعبد مأمور، قال له رئيسه بدهشة" ما شأنك أنت بالبحث عن الأفضل أو الأيسر على الناس؟.. هل تظن نفسك مشرعاً؟.. مهمتك استلام الطلبات من أصحابها ثم تبليغهم بالرد .. لا تزيد على .. موصل بين الجمهور والإدارات المختصة دون أى تعليق من جانبك أو خروج ولو بخطوة واحدة عن حدود اللوائح.

لا .. بالتلث .. بكل وطنيته وامكانياته وطموحه .. لم يكن هذا هو الدور الذى حلم دواما بالقيام به .. أبداً .. لا يستطيع الاستمرار .. ليته عمل بالمحاماة.. يؤمن ببراعته فى الخطابة والاقناع .. كثير من أساتذته قالوا له ذلك .. الدفاع عن المظلومين .. إعادة الحق إلى نصابه ..

الشخصية لها ثقلها الكبير في المرافعة .. لذلك تتفاوت مستويات المحامين بين لامع وعادى وأقل من العادى .. ليس مغرورا لكنه واثق من نفسه .. ومن قدراته .. كان يجب أن يلتحق بعمل يحتاج إلى هذه القدرات والشخصية والاقدام .. ويظهرها وينميها .. لا أن يحشرها في حيز أضيق منها بكثير، أين حماسه وقدراته الآن؟.. دفنها فى أول دوسيه انجزه بعد أن كفنها في طلبات الاستيفاء..

والاستيفا.. بوسع أى موظف كتابى محدود أن يقوم بها.. مكانه فى ساحات القضاء ليصول ويجول.. لا بد أن يصحح الوضع.. ويكتب طلباً يضمنه رغبته فى النقل إلى قلم قضايا الحكومة.. اخيرا ها هو يترافع.. هذا هو ميدانه .. القضاة ينظرون إليه والاعجاب بمنطقه يلمع فى عيونهم..لم يكد يترك صغيرة ولا كبيرة يمكن أن يفيد منها موكله، أما الجمهور فإعجابه أكبر.. يستمعون إليه مبهورين ببراعته وتمكنه.. صامتين تماما وكأن على رؤوسهم الطير.. حتى حاجب الجلسة يسهى عليه أن يرفع سيجارته إلى فمه فتكاد تحترق دون أن يأخذ منها نفساً!.. المتهم في القفص يكاد يرقص من السعادة.. بعد هذا الدفاع البليغ.. البراءة آتية لا ريب فيها، وينتشى هو بهذا الاعجاب فيزيد ويفيض.. اخيرا ينهى مرافعته فتضج القاعة بالتصفيق الحاد.. يدق القاضى على المنصة لكى تصمت الجماهير حتى ينطق بالحكم..فتح فمه..نطق:

- استيفا..

ويصاب بالذهول:

- حتى سيادتك تقول ذلك..؟!

ويحك الفراش- الذى اكتشف وقوفه امام مكتبه طوال مرافعتـه الوهمية- ذقنه مرتبكا وهو يهمهم:

- سيادتى..؟!

يرى النظرة الغريبة فى عينى حامد فينقلب ارتباكه إلى ذعر:

- طلب استيفا يا حامد افندى..مثل كل يوم..

يصرخ فيه حامد:

- كل يوم يا غبى؟، قل كل دقيقة..

يزداد فزع الفراش فيلقى بالطلب ويطلق ساقيه للريح وهو يردد:

- كل دقيقة يا حامد افندى..كل دقيقة..

عموما هانت..قريبا يصبح الحلم حقيقة ملموسة..طلبه يسير- ولـو أن سرعته لا تزيد على سرعة السلحفاة إلا أنه على آية حـال يسير-بين المكاتب..

"اشتدى أزمى تنفرجى".. نطقها حين لاحظ ازديـاد الدوسـيهات فوق مكتبه بصورة ملموسة فى الايام الاخيرة.. كـل هـؤلاء يريـدون

تغيير اسمائهم..اغلبية الطلبات من أناس ضايقتهم حيرتهم بين اسم مكتوب فى شهادة الميلاد واسم اشتهروا به ولكن..لماذا؟..

لماذا يطلق الناس على شخص ما اسما آخر غير اسمه الحقيقى حتى ليشتهر بالأول؟ .. سأل بعض المترددين عليه.. ربما ليحاول فى تنوع الحكايات أن يمسح ملل العمل المتشابه المتكرر..

دلع أمهات أو جهل اخريات اكتشفوا- بعد أن أصبح الطفل يمشى-أن هناك اسما آخر أجمل من اسم قرة العين.. حركة استعلاء ورشاقة يقوم بها طفل يخيل معها لاحد اصدقاء اسرته انها تشبه حركة الهدهد فيطلق اسمه عليه.. مرة بعد مرة، وآخر يفك جميع لعبه فيقولون عنه المهندس.. ويشتهر بهذا الاسم ، جد أو خال كان الطفل مسمى على اسمه ينتقل إلى رحمة الله.. تلقائياً يتغير الاسم حتى لا يثير الأشجان..!

بعض القصص لا تخلو من طرافة..سيدة حكت له أنها ولدت بمنزل اسرة والدتها بالصعيد ولم تفكر الاسرة فى سؤال والد الطفلة بشأن اسمها استصغارا لشأن "البنت" هناك، عدا أنهم يعتقدون أن من تطلق على ولد وبنت من ذريتها اسمى محمد وفاطمة فإنها تدخل الجنة، ومن ثم ارتأوا أن يدخلوا ابنتهم الجنة.. هكذا بغير حاجة إلى الصلوات والطيبات والعمل الصالح، فوجئ الوالد بعد عودة الام وطفلتها إليه بالاسم فثار.. هى تعرف أنه على غير علاقة طيبة بشقيقته فاطمة

بسبب خلافات حول الميراث فكيف يسمى ابنته على اسمها؟.. كيف ينطق بهذا الاسم فى منزله كل يوم.. عدة مرات.؟.. من جهة أخرى كان ضباط المركز- عندما علموا بنبأ المولودة السعيدة التى رزق بها المأمور-قد فكروا فى القيام بحركة مجاملة.. احضروا أربعا وعشرين شمعة ثم أوقدوها بعد أن أطلقوا على كل منها اسما.. ليظلوا ساهرين بجوارها طوال الليل..قرب الفجر بدأت الشموع تنطفئ..واحدة اثر الاخرى وكانت آخر شمعة ظلت موقدة تلك التى أسموها "آمال"، تقدموا إلى رئيسهم يقترحون هذا الاسم للصغيرة الغالية..فذلك-ولاشك- فأل حسن بالعمر الطويل، رأى هو من اللياقة أن يرد على مجاملتهم بمثلها..أن يطلق على الطفلة اسم "آمال"...

ويسألها حامد :

- ولماذا لم يغير الاسم فى شهادة الميلاد فورا وكان عمرك وقتها اسابيع؟

- كسل ..!

دائما ازدواج الاسم كان يسبب لها المضايقات والمتاعب حتى ضاقت بها ذرعا فقررت تصحيح الوضع ، ويدهش :

- لكن عمرك ..

وتقاطعه بسرعة : ثلاثون سنة ..

لم تكن هى الشجاعة الفائقة دفعتها للبوح بعدد سنوات عمرها .. شهادة ميلادها كانت بين يديه، ويتمتم:

ـ تحملت المتاعب ثلاثين سنة ولم يضق صدرك بها سوى هذه الايام فقط .. عندما عينت أنا بالسجل المدنى؟.

يبدو أن الناس جميعاً احسوا بهذا الضيق فى وقت واحد فالدوسيهات يزداد تكدسها بشكل فاق العادة، الكوم الايمن ارتفع وارتفع حتى حال بينه وبين نسمة الهواء الآتية من النافذة البحرية .. استعاض بورقة يهوى بها .. الذى إلى اليسار أيضاً حجب عنه شعاع الضوء الذى يتسرب من النافذة القبلية .. حسنا .. فليوقد النور فى عز الظهر، الكوم الذى أمامه حجب زملاءه جميعاً .. ربما كانت هذه الميزة الوحيدة لتكدس الدوسيهات .. يكره صخبهم وضحكاتهم بسبب وبلا سبب .. هذه اللامبالاة التى تصبغ جميع تصرفاتهم.. أشداقهم التى لا تكف عن الحركة .. دائما يلوكون بينها شيئاً أكلا .. تسالى .. كلاما، لا يهتمون به ابدا ولا يعيرونه أو شكواه أى التفات.

"ولا يهمك .. غداً تتعدل الأمور".. يواسى نفسه رغم أن طلبه تعثر كثيراً.. يبدو أنه كان لزاما أن يمر هذا الطلب على جميع موظفى الدولة.. وحتى فراشيها..! أعيد إليه مذيلا بهذه التأشيرة "لا بد من إيجاد بديل" بحث ودار حتى أوجد البديل.. وعاد يقدمه..ليرجع

إليه مرة أخرى بعد شهور ، كان قد قدمه على نموذج ٣٦٧د بينما المفروض أن يكتب على ٣٦٧ذ..؟ نقطة؟ نقطة تعطله شهورا؟

درس اللوائح جيداً بعد أن ارتدى نظارة عملها خصيصا منعا لأى التباس أو خطأ ومن جديد بدأ طلبه رحلته الخالدة.. من الصفر، مع العودة لزيارته بين الحين والحين متحليا فى كل مرة بطلب استيفا.. ورقة هامة.. وثانية ..وثالثة..وعاشرة..كان لابد وأن يشرب من نفس الكأس التى سقاها للناس.. وإن لم يكن عنها هو المسئول..!

بدأ الأمل يتسرب من نفسه مع مرور الوقت.. عاد إلى ضيقه وتذمره طيلة اليوم.. احس به زملاؤه ورئيس القلم اخيرا..ضاقوا بشكواه.. قرر الرئيس أن يتدخل.. جرى بنفسه هنا وهناك خلف الطلب.

اخيرا صدر الأمر بنقل حامد توفيق إلى قلم قضايا الحكومة، وجاء الرئيس مسروراً بالدوسيه الضخم وعليه التوقيع الاخير الذى يحل حامد من عمله الرتيب.. ويحلهم هم ايضا من مزاملته الكريهة.. لكن الرئيس يتسمر امام المكتب.. لم يكن حامد موجوداً.. اين ذهب؟ ربما مل الانتظار فترك العمل من تلقاء نفسه.. ربما كان مريضا فعاد إلى منزله ليستريح.. ربما مات !، أو.. ربما اختفى تحت هذه الدوسيهات المكدسة.. الفكرة الاخيرة أقرب إلى الاحتمال حيث الاكوام الاربعة اصبحت كوماً واحداً.. أو جبلا واحداً..

لكنه لم يعن برفع البضعة دوسيهات العليــا ليتـأكد.. فأيـا كـانت صحة أحد هذه الاحتمالات ..النتيجة واحدة.. لـن يضـايقهم حـامد بعـد الآن بتذمره وصياحه بين الحين والحين.. استيفا..



راحت الكوارث تتوالى حتى لم يعد أحد من المسئولين بقادر على التصرف، أصبحوا جميعاً يحسون كما لو كانوا وسط طوفان مضى يغمرهم من هنا وهناك.. دون أمل فى شاطئ يقترب أو مركب منتظر، بدأ الكل يهمسون لى "ليتنا أخذنا برأيك".

رأيى ؟، هه .. وهل تركونى حتى أقوله؟، ما إن عرض كبيرنا فكرته حتى تسابق كافة المجتمعين على الموافقة، وعندما اعترضت .. لم يمكنونى حتى من شرح اسباب رفضى، حيث راح الكل يتحدثون فى نفس واحد.. ثناءً وتقريظا واستحسانا!، لم أفهم بالضبط ماذا يقولون .. كنت أحس كما لو أن أصواتهم تنحشر مقتولة فى فتحتى أذنى، طبعا اضطررت للسكوت.

رغم ذلك طلب منى الكبير أن أقوم أنا بتمثيل قومنا فى المفاوضات التى اقترحها، حيث أنا الموكل دائما بذلك، وبادرت من فورى إلى حجرة مكتبى الخاصة لإعداد أوراقى، بالى مشغول تماما، فورائى مهمة صعبة .. جداً .. لذا يجب أن أهتم بإعداد جميع وثائقى ومستنداتى .. مؤيدة بالأرقام الدقيقة والمعلومات المؤكدة، أيضاً ينبغى أن أراجع كافة الحجج والبراهين التى أستطيع بها إقناع الطرف الآخر، كى يستجيب للفكرة التى أحملها. حتى ولو لم أكن أنا نفسى مقتنعا بها، لكنه الواجب. والنزول على رأى الأغلبية.

بعد ساعات من العمل المرهق أحسست بالاطمئنان لقوة موقفى .. فأغلقت ملفاتى وقمت لتناول طعام العشاء، رغم استجابتى تلك المرة لمداعبات طفلتى .. إلا أننى لم أستطع التغلب على شعور القلق الذى بدأ يراودنى منذ شهور.. كلما طالعت وجهها، إذا كانت الحال قد وصلت بنا إلى هذه الدرجة من المعاناة.. فكيف تكون حياة طفلتى وجيلها بعد عشر أو عشرين سنة؟..

سيقاننا تكاد تغوص فى تلك الرمال المتحركة التى اسموها قوائم الانتظار، بعد الشقق حل الدور على بعض المنتجات الصناعية.. السيارات.. الثلاجات.. الغسالات الخ الخ، عدا هذه القوائم المكتوبة توجد قوائم انتظار بشرية..الطوابير.

وفى كل يوم تضاف خدمة جديدة.. أو سلعة أخرى إلى قائمة السلع أو الخدمات التى تحتاج للانضمام إلى اللعبة، لعبة الوقوف فى قوائم الانتظار، ماذا يعنى ذلك؟، هل يعنى أن أعداد الناس تفوق كثيرا أعداد أى شئ.. أم أن أعداد أى شئ أقل من أعداد الناس؟، حتى كادت هذه القوائم تمتد لكل شئ فى حياتنا.. كبر أم صغر.

بعد الفراخ بدأت طوابير السجائر.. ثم بعض المبيدات الحشرية.. والعدس والجبنة. والسافو والبيض.. وحتى البطيخ والعنب.. إلى رغيف العيش، أما فى الخدمات فقد تفشى فيها الوباء - وباء قوائم الانتظار- بصورة أفدح، هل يصدق أحد أن تدرج أسماء المرضى

المحتاجين لبعض الجراحات فى قوائم للانتظار؟!، أيضا أسماء الأطفال الراغبين فى الالتحاق ببعض المدارس.. طلب تركيب تليفون.. نشر عمل أدبى الخ الخ..

على أن كل ذلك كان بالإمكان تحمله.. لكن الأمر الأخير هو ما فاق كل احتمال، عندما تكدس باطن الأرض بالجثث.. حتى لم يعد هناك مكان لآية جثة جديدة.. عندئذ اضطر القوم لوضع أسماء المتوفين فى قائمة للانتظار..انتظار أن تتحلل إحدى الجثث لتدفن جثة أخرى مكانها، وطبعاً كانت الجثث توضع فى ثلاجات المستشفيات..بعد أن تأخذ كل منها رقما خاصاً لكن هذا الوضع لم يكن ليحل المعضلة إلا لمدة شهور تعد على أصابع اليد الواحدة، بدورها امتلأت الثلاجات حتى آخرها، فكان ذلك الاجتماع الذى دعا إليه كبيرنا.. حيث عرض فكرته.. التفاوض مع ملاك الموت.. لإعداد قائمة انتظار خاصة به.. يرتب فيها أسماء من حل أجلهم.. حتى يتم دفن الجثث المكدسة فى الثلاجات!

على عكس ما توقعت .. وافق السيد عزرائيل على مطلبنا.. حتى من قبل أن أتلو عليه حججى أو إحصائياتى.. لتقفز مشاعر خيبة الأمل على ملامحى!، تمنيت لو جاءت موافقته بناء على قوة منطقى الذى بذلت فى مراجعته عناء وجهدا، اكتفى مفاوضى أن يبتسم ابتسامة خفية وهو يقول :

- كما تعلم فإننى لا أتحدث كثيراً، وأيضا لا أحب الاستماع كثيرا، وما دمتم تقولون إن مطلبكم هذا هام وحيوى ولا بد منه فلا بأس.. فقط وقع لى بأنكم مسئولون عما قد يترتب عليه من أمور.

بصرف النظر عن النواحى الإنسانية .. كطول عذاب المحتضرين - لأننى كوزير مسئول أهتم بدرجة أكبر بالنواحى العملية - فقد بدأت الكوارث تتوالى علينا نتيجة لاختلال الناموس الأعظم.. ناموس التوازن، زادت أزمات السكن والمواصلات والغذاء والمدارس والمجارى والمستشفيات والأمن وكل شئ..كل شئ، حيث تضخمت قوائم الانتظار الخاصة بكل هذا تضخما خطيراً، واضطر كبيرنا أن يأتى إلى مسكنى أول أمس ليقول لى :

-كنت معارضا لفكرتى بأن يتوقف عزرائيل لبعض الوقت .. يبدو أنه كان معك الحق، فماذا كان البديل فى رأيك؟.

- لا أستطيع تقديم بديل الآن .. فكما ترى تأتى القرارات المتسرعة بنتائج عكسية، لذلك فإننى سأجمع الخبراء فى هذا الموضوع لأتدارس معهم الأمر.

وقد كان، وتبارى كل خبير فى تقديم أحد الاقتراحات مع دراسة كاملة عن توقعاته عنه، وبعد مناقشة المجتمعين لكافة المقترحات.. استقر الرأى على استبعاد فكرة تحنيط الجثث، فإذا كنا لا نجد لها مكانا يكفيها تحت الأرض.. فكيف سنستطيع تدبير هذا

المكان فوقها؟ وأيضا رفضنا فكرة إرسالها فى كبسـولات لتدفن علـى القمر.. وذلك للتكاليف الباهظة التى تتطلبها تلك العمليـة، كذلـك فكرة إلقائها فى النهر.. خشية تلوث مياهه التى نعتمد عليها جميعا للشـرب، وبذلك انحصر التفكير فـى اقـتراحين فقـط..إمـا حـرق الجثـث.. كمـا يحدث فى بعض الدول، أو بنــاء المقـابر ذات الأدوار المتعـددة.. كمـا فى جراجات السيارات الحديثة.

هـذا الصبـاح كـان الموعـد المحـدد لاجتمـاع مجلسـنا الموقـر، ذهبت إلى هناك وأنا أحمل تحت إبطى مشروعى الفكرتين شاملة كـل الدراسـات والمناقشـات التـى دارت حولهـا، رغـم تبكـيرى بـالحضور وجدت كبيرنا موجودا من قبلـى، اتجهت إليـه وبـدأت بعـرض الأمـر دون أن أضيع وقتا، لكننى لم أمض فى ذلك الشرح طويـلاً.. اسـكتنى بإشارة من يده:

– اغلق ملفاتك .. فلن نبحث هذا الموضوع اليوم، متفـق معـك طبعاً فى خطورته.. لكننى قـررت أن الأمـور ينبغـى ألا تسـير هكـذا بالارتجال فى مجلسنا الموقر العظيم.. وإنما يجب أن نضـع المشـاكل والأمور التى تحتاج للبحث فى قائمة انتظار.. ثم نسـير علـى هديهـا، وكما ترى.. فى قائمتنـا تلـك.. هنـاك مشـكلة تسبق موضوعـك، هـى تقرير من الذى يوضع اسمه أولا فى الحفل الرسـمى.. الوزيـر الأول أم قاضى القضـاة؟، ربما كانت هذه المشكلة أقل أهميـة لكننـى أود أن تكون قائمة الانتظار هذه مقدسة لدينا!.

يا إلهى قائمة للانتظار مرة أخرى؟ أيها الناس اعلموا- والحاضر يبلغ الغائب هاهى قائمة جديدة تضاف لقوائم الانتظار فى عصرنا العجيب هذا.

قلت بفتور ـ ألو ..

وجاءنى الصوت على الطرف الآخر .. صوته .. وهل يمكن أن أتوه عنه؟، حتى لتغير الصوت بعض الشئ ـ فإن قلبى يلتقط نبذباته ويميزها من بين ملايين الأصوات، قال : ـ صباح الخير يا منال..

سكت هنيهة كما لو كان يلتقط أنفاسه ثم أردف :

ـ هل أبلغك مرتضى بسؤالى ؟

يا الله .. هل تسمى ما نقله إلى مرتضى سؤالا؟ إنه رصاصة .. وان كانت من الكلمات، وكيف السبيل للإجابة على مثل ذلك السؤال؟، فى ظروفى هذه أشبه شخصا يسير فوق حبل مشدود وقد غطيت عيناه بعصابة كثيفة. أنه يعلم أن على أحد جانبى الحبل توجد جنات النعيم .. وتطل الجهة الأخرى على جهنم وبئس المصير، ثم يأتى من يوجه إليه السؤال .. هل تود أن تلقى بنفسك تجاه الشرق أو الغرب؟ . كيف تنتظر منى يا حامد أن أجيب على سؤال يتحدد على اجابته مصير أسرة وأنا لست على ثقة من أى شئ؟ حتى حدسى الذى كثيرا ما أرشدنى .. تخلى عنى هذه المرة، وبدا بدوره متخبطاً.. يحتاج لمن يأخذ بيده ويوجهه!.

لم يخطر ببالى ابداً ـ عندما كنت غارقة حتى أذنى فى حب حامد ـ أننى بعد تحقيق حلمى الاكبر فى الارتباط به، سأعيش يوماً

فى ذلك الأتون!، كيف وهو الذى تحدى العالم فـى سـبيل التمسـك بـى رغم الفارق بين أسرتينا .. استطاع إقناع أمه .. وكذلك عماته .. لكن زوج والدته .. الضابط الكبير فى الجيش ظل علـى تزمتـه، ولـم يكـن رفضـه بـالأمر اليسـير .. فهـو عميـد الاسـرة .. صـاحب الكلمـة المسموعة على الجميع .. عدا أنه وقد رباه منذ طفولته كان فى منزلة والده، مع ذلك شق عليه عصا الطاعة وتزوجنى رغم ارادته..

يوم الزفاف بدا وكأنه أسعد أهل الأرض .. غير آبه بتغيب أغلب أفراد أسرته الذين خشوا اغضاب سيادة اللواء الخطير وان اثبت الرجل - بعد حوالى العام – أن عنجهيته تخفى تحتها مشاعر رقيقة .. وإلا لما بدا ملهوفاً إلى هذه الدرجة عندما علم باصابة حامد فى حادث سيارة، رغم أنها اصابة بسيطة، ما الذى حدث بعد ذلك إذن؟ هل عندما تزداد السعادة بشخص ما ينوء كاهله عن حملها .. فيلقيها ويفر هارباً بأقصى قوته!؟، هذا العاشق السعيد بزواجه.. لقد ازدادت سعادته برضا "والده" عليه.. ثم اكتملت السعادة بعد ذلك بطفلين رزقنا بهما على التوالى، حتى خيل إلى أن الاقدار قد هادنتنا تماماً .. وأعطتنا اجازة مفتوحة من مشاكلها ومتاعبها، لكن .. وآخ من لكن هذه .. لم تطق المشاكل اجازتها الطويلة فقطعتها وعادت .. لتطل علينا بوجهها الكئيب!. بدأ حامد يتغير .. أصبح حديثه قليلاً .. وطعامه أقل، متجهما دائماً.. يثور لأتفه الأسباب، وفى كل مرة كان يرد على تساؤلى بأنها "مشاكل فى العمل" وصدقته .. لم يكن هناك

من داع لأن يكذب، وكان على أن أقف بجواره لأشد من أزره .. وقد فعلت، لكن تعاطفى معه لم يؤت ثماره .. على العكس .. بدأت ثوراته تزداد حدة..

ثم جاء اليوم الذى هجر فيه المنزل .. منزلنا .. الذى بنيناه بالكفاح المشترك، لم يعد فى موعده .. فاتصلت بعمله .. ليخبرونى انه خرج منذ ساعات.. ويزداد قلقى حتى تتصل بى حماتى فى المساء لتنبئنى أن حامد سوف يبيت ليلته عندها.. حيث أعصابه متعبة، ويريد أن يرتاح قليلاً، وبصعوبة تمكنت من كتمان دهشتى.. فما الذى يمنعه أن يرتاح فى منزله؟ لكن استطعت اقناع نفسى - على مضض - بأنه لا فرق بين منزله ومنزل والدته .. خاصة وهى تعانى من الوحدة بعد وفاة زوجها، فى اليوم التالى لم يحضر أيضاً .. ولضيقى لم اسأل عنه .. وإذا بغيابه يتمد لليوم الثالث، ورغم مطارق القلق التى كادت تحطم اعصابى.. قام صراع بين حبى وكرامتى .. انتصرت فيه الكرامة .. فلم اتصل أيضاً لكن عندما تجددت المعركة فى اليوم الرابع .. صرع الحب الكرامة بالضربة القاضية وردت حماتى بصوت متألم:

- لقد ظهر أن الأمر أكبر بكثير مما ظننت .. ان حامد مصاب بحالة اكتئاب نفسى شديد، وقد ذهب إلى الطبيب الذى كتب له بعض الأدوية.

قلت بلهفة :

ـ إذن يجب أن يعود إلى منزله .. حتى أتولى خدمته وأمور علاجه

ـ هذا متعذر حالياً يا منال.. حيث نصح الطبيب بالتغيير

ـ إذن فالتغيير يكون بالسفر .. ما رأيك أن أترك الأولاد مع والدتي وأصحبه إلى أي بلد يفضله؟..

ـ لقد عرضت عليه ذلك فعلاً .. لكنه حالياً يفضل عدم السفر، عموماً كوني مطمئنة فأنا قادرة على خدمته .. واهتمي أنت بالأولاد فهم في غياب والدهم يحتاجون لرعاية مضاعفة..

صحت بحدة :

ـ هل ترين أن هذا وضعاً طبيعياً؟... ماذا يقول الناس؟...

ـ ليس المهم كلام الناس .. المهم أن يشفى حامد

وازدادت حدتي : وشفاؤه لا يكون إلا ببعده عني؟! هل يعني ذلك أنني سبب اكتئابه؟!

ـ أبداً يا منال وأقسم لك ...

ـ كيف تقسمين على شئ لا يخصك؟ . هل دخلت في أعماق مشاعره

- لا تغضبى منى .. رغم حبى لك الا أن شفاء ابنى يعنينى بالدرجة الأولى .. لذلك سألته نفس سؤالك عندما وجدته يفضل البعد عن منزله هذه الفترة .. لكنه نفى ذلك نفيا قاطعا .. المهم أن تتحلى بالصبر.

لكن ذخيرتى من الصبر إلى جانب ما استطعت استجلابه من هنا وهناك - نفذ بأكمله ، وأنا أرى أحلامى تنسحب إلى بعيد .. تضيع تتلاشى.. فى نهاية الشهر الثالث لغيابه بدأ الجميع يتساءلون ويتهامسون .. مشفقون أو ساخرين .. وربما .. شامتين واحترت بما أرد .. حتى توصلت لاكتشاف كان كفيلا بأن يجعل مشاعر الزهو تتملكنى.. لو لا أن شعور المرارة كان قد ملأ نفسى بأكملها.. فلم يترك لأية مشاعر أخرى أن تشاركه فيها .. اكتشفت اننى أجيد تأليف القصص والروايات!.

قلت لأسرتى أول الأمر إن حامد قد سافر فى مهمة .. حتى عُرف أنه يذهب إلى عمله يومياً .. فعدت أقول إن والدته مريضة وهو عندها ليرعاها، لكن حين طال الأمر وأيضاً شوهدت والدته فى بعض الزيارات .. اضطررت أن أقول وأنا أتظاهر بأنه الاعتراف الأخير .. إننا على خلاف بسيط.. وحرصاً من حامد على راحتى وراحة الأطفال رفض أن أذهب إلى بيت أبى وارضاء لى ترك هو المنزل إلى شقة والدته!.. لكن يبدو أن موهبة التأليف هذه كانت مؤقتة.. حيث بعدها لم أعد أجد ما أقوله.. نضبت جعبتى من

الروايات ومن الصبر أيضاً .. بدأت أحس أننى كحطام مركب غريب راحت تتقاذفه الأمواج .. كنت أبكى .. لكنه كان بكاء داخلياً غير منظور للخرين .. تحالف النوم مع حامد فتسلل ـ هو الآخر ـ لائذا بالفرار .. غير مستمع لتوسلاتى له أن يعود، وتجمعت رياح الثورة.. ليس عليه وانما على نفسى.. ماذا انتظر وأنا أرى عمرى يتسرب من بين أصابعى قطرة قطرة؟ لماذا أؤجل أو أسوف اتخاذ القرار الحاسم فى مثل حالتى؟، وهكذا استدعيت مرتضى ـ ابن عمه ـ كى أقول له اننى لم أعد اقبل هذا الوضع المهين قط ثم من يضمن لى أنه لا توجد امرأة أخرى فى حياته؟، من أول الأمر بدأت اشك.. ومع الأيام راحت فئران الشك داخل طوقى تلعب وتمرح.. وهى تكبر وتسمن.. خاصة انها تتغذى على العديد من الأقاويل، لذلك فإننى اطلب منه ابلاغ حامد بكل صراحة عن رغبتى فى الطلاق.

فى اليوم التالى فوجئت بحماتى تزورنى على عجل وتتوسل إلى أن أعدل عن طلبى "المجنون" وماذا اذن تنتظر منى .. وتصرفات حامد معى ولغط الناس حولى كانت بمثابة سيول من العذاب والمرارة والشك والمهانة.. اجتاحتنى من كل جانب.. لتكتسح أمامها آخر حصون العقل؟، اعرف حبها لى لكنى لم أكن اتوقع أن تكون بهذه اللهفة على تغيير رأيى لدرجة أن تقبل رأسى، تأثرت لمشاعرها ـ لذلك خرج صوتى مشبعاً بقطرات الأسى المرة المذاق:

ـ لم تعد هناك فائدة .. لقد لفظـت حياتنـا الزوجيـة أنفاسـها ولـم يتبق سوى استخراج تصريح الدفن.. فما الفائدة من الإبقاء على منزل قد انهار بالفعل بينما تصرف صاحب الشأن لا يعنى سوى أمر واحد .. أننى التى أسبب له المرض النفسى...!

ـ كيف تؤكدين ذلك بينما هناك تعليلات أخرى عديدة .. أليس محتملاً أنه فى حالته المرضية تلك ـ لم يد راغباً فى علاقات حميمة؟

ـ وحتى هذا لا يبرر بعادة .. كان يستطيع أن يستقل بغرفة..

ـ أنا لا أقول ذلك عن يقين فيحتمل وجود أسباب أخرى المهم مفروض منك وأنت زوجته أن تضحى ولا تضغطى عليه حتى يكتمل الشفاء.

حديث حماتى تركنى فى دوامة، وليتنى أستطيع الولـوج داخـل قلب أو عقل حامد لأعرف منه موقفه بالضبط، حقاً أشعر أننى بدونـه مبتورة ناقصـة.. أسير وعينـاى تتجـولان فـوق الوجـوه كأنهـا تبحـث عنه.. لكن إذا كان فعلاً قد ملني وتعلق قلبه بأخرى.. لكن تحرجه من المصارحة أوقعه فى صـراع.. فـإننى يجب أن أنسـحب حفاظـاً علـى كرامتى.. وأيضاً على توازنه النفسـى، بنفس القدر أخشـى ألا يكـون شئ من ذلك صحيحاً .. وأنـه حقـاً مريـض لاسـباب أخـرى.. فعندئذ يكون واجبى فعلاً مزيدا من الصبر عليه كى أعطيه الفرصة للشفاء..

لا أن أزيد من ازمته واشعاره بالذنب بطلب الطلاق، لذلك لـم أستطع الرد عندما أبلغنى مرتضى بسؤال حامد .. قال:

ـ أكد لى حامد أنه مازال يحبك .. لكنـه لا يستطيع ان يظلمك بينما هو لا يعرف متى يتم الشفاء .. لذلك فهو يسـألك عمـا إذا كنت مصممة على طلب الطلاق .. انه عندئذ لن يسعه سوى إجابة طلبك، أما إذا استطعت اعطاءه فرصة أخرى فانها تكون مكرمة منك!..

يبدو أن حامد ـ عندما تأخر ابن عمه فـي ابلاغـه بـردى قرر ان يتولى الأمر بنفسه، وهكذا حين رفعت سـماعة التليفـون من هنيهة فوجئت بصوته .. يبغـي اسـتيضاح ردى علـى سـؤاله ذاك .. الرهيب، عندما طال صمتى عاد هو يتكلـم :

ـ هيه يا منال .. هل أنت معى؟

بدون وعى وجدتنى أهتف من بين دموعى :

ـ ليتنى فعلا يا حامد .. كنت معك!..

لم يقاطعها ولا مرة واحدة طيلة روايتها لرحلتها مع الأنغام.. على حد تعبيرها، على العكس.. فإنه كان يدفعها للإسهاب والإفاضة بهزة مستحثة من رأسه بين الحين والحين، وهى فى الحقيقة لم تفهم لماذا كانت عيناه تلتمعان ببريق خاطف عندما كانت تصل لحدث ما أو واقعة بعينها.. لكنها فرصة على كل حال أن يجد أى شخص من يستمع إليه بكل ذلك الاهتمام.. وهو يروى تاريخ حياته بجميع ما صادفه من متاعب أو عقبات، ثم من يدرى .. ربما استطاع فعلا بطريقة أو بأخرى أن يحقق لها الشهرة التى تصبو إليها.. أو على الأقل يقربها منها، قالت فريدة:

– أحببت الغناء منذ نعومة أظفارى كما يقولون، بدأت من المدرسة، فى حصة الأناشيد كنت أصول وأجول لهذا اعتمدت على المدرسة فى ترديد الأناشيد والاغانى المناسبة فى حفلات نهاية العام، وأيضا فى بعض المناسبات والزيارات الهامة لمدرستنا، لكن هذه المناسبات لم تشبع رغبتى فأخذت أغنى فى أفراح الأقارب والجيران، أظل طوال الليل أردد أغانى جميع المطربين والمطربات التى كنت أحفظها بأكثر مما أحفظ دروسى ليقدموا لى فى آخر الفرح طبقاً من الجاتوه، بل بلغت بى هوايتى أننى التى كنت أحيانا أدفع كى أغنى. فأحمل للعروس هدية صغيرة حتى يرحبوا بى وبغنائى!.

– وهل كان المدعوون فى الأفراح يعجبون بغنائك؟.

– جداً.. ويستعيدونني أكثر من مرة، حتى جاء الوقت الذى أحسست فيه أن فترة الهواية– التى لم تعد ترضى طموحى– قد انتهت وآن أوان الإحتراف.. نعم.. أصبح مطربة، كان ذلك الحلم يداعب خيالى من سنين، وتوقعت أن أبدأ صغيرة ثم أكبر مع الأيام، لكن مع الأسف..كبرت فى العمر فقط، بعد كل هذه الاعوام ورغم العمل مع العديد من وكلاء الفنانين..فإننى لا أعد أبدا شيئا مذكورا فى عالم الطرب، إننى أغنى فى الكثير من الحفلات والأفراح..الكثير جداً.. لا أرفض أبدا أى حفل..بأى أجر، فمن يدرى..ربما فى إحدى هذه الحفلات يرانى واحد من مكتشفى النجوم فينقلنى مرة واحدة من الأرض إلى السماء..

– كما قال على بك مظهر..بطل مسلسل فرصة العمر.."وهب تلاقى نفسك فوق!"

– وكما حدث بالفعل لعديد من نجوم الصف الأول عندنا..الذين لعبت الصدفة فى حياتهم دورا كبيراً، لكن فرصة العمر بالنسبة لى لم تسنح أبدا رغم كثرة ما غنيت، إنك تجدنى دائما فى أية حفلة..تقام بأى نادٍ..مع مجموعة من المغمورين أمثالى، يضعهم المتعهدون ليكونوا بمثابة الإكسسوار الذى يحيط بالنجوم الكبرى.. فتزداد هذه النجوم تألقا.. ويظل الصغار على صغرهم، مجرد كمالة عدد فى أى

حفل..تساعد على اختيارهم ضآلة أجورهم، فكما قلت لك كنت أقبل أى أجر، حيث لا أحمل فوق اكتافى آية التزامات أسرية، والحمد لله أننا هنا فى مصر..حيث يستطيع إنسان بالغ أن يأكل ويملأ معدته حتى الشبع بقروش معدودات..لا حرمنا الله من الفول المدمس والطعمية، ولنؤجل الأطايب والمشهيات لما بعد الوصول إلى القمة بإذن الله، فى أوائل حياتى كنت واثقة من وصولى لهذه القمة، صحيح مع ما انصرم لى وأنا فى الوسط الفنى اهتز الأمل كثيرا.. لكنه ما يزال موجودا، لم لا وقد شهد الجميع بحلاوة صوتى؟.

– هل كان ضمن من شهد لك بذلك متخصصون؟.

– طبعاً .. شهد لى الكثير جدا من المطربين والملحنين، بعضهم كان يشرف على برامج الهواة فى الإذاعة والتلفزيون.. والبعض الآخر تجرأت وفرضت صوتى على أسماعهم عندما كنت ألقاهم مصادفة، الكل شهد لى بجمال الصوت وقوته ونقائه، حتى عبد الوهاب نفسه..الذى يعرف الجميع أنه لا يجامل أبدا أكد لى أننى أتمتع بصوت رخيم معبر، موسيقى كبير آخر قال لى إن صوتى كما شلالات من الحرير، لكم تمنيت لو أن أحد هؤلاء الملحنين احتضن موهبتى وقدمنى..لكن ذلك– وقد حدث للكثيرات– لم يحدث لى حتى الآن، وطبعا لم يكن فى استطاعتى أن أجبر أحدا منهم على أن يفعل، إن ما ينقصنى هو الحظ.. والحظ مثل الطيور.. والطيور لا تنتظر من أحد الأمر بالإقبال أو الرحيل..

– أرجوك أن تحكى الوقائع التى حدثت لك دون أن تتدخلى بتحليلات أو تعليلات من عندك.

– حسناً..خطر لى فى العام الماضى أننى سأضع قدمى على أول سلالم المجد لو أنى ظهرت فى التلفزيون.. حيث كان مذيع الحفل.. أى حفل.. يصف أحد المطربين أو المطربات بأنه– أو أنها– نجم الإذاعة والتلفزيون، رغم أنه قد لا يكون غنى فى التلفزيون سوى مرة واحدة..وربما كان ذلك فى الإعلانات!، لكن حتى هذه الأمنية الصغيرة تأخرت كثيرا وتعثرت أكثر، إلى أن تحققت فإذا بها ضلالات وهم كاذب!، استطعت يوما أن أغنى فى التلفزيون، ومن وقتها أصبحت أؤكد على أى مذيع ألا يقدمنى إلا على أننى مطربة الإذاعة والتلفزيون، لكن هذا اللقب الذى كان يتألق ببريق كبريق الماس حول جيد العديد من الزميلات حتى ساعدهن ودفعهن كثيراً.. لم يزد بريقه حول جيدى أنا على بريق الزجاج، لقد بدأ يخيل لى أن الناس فى هذه الأيام قد أصيبوا بضعف فى الذاكرة..الجميع..بلا استثناء، ما أكاد أحدث أحدهم حتى يسألنى عن اسمى، ويدهشه جداً أن أذكره بنفسى وباليوم الذى غنيت فيه أمامه..فيروح يفرك جبهته طويلا، لكنه لا يستطيع أن يتذكرنى إلا بعناء وجهد شديدين.. وقد لا يتذكرنى على الإطلاق!.

اعتدل الأستاذ فى جلسته بصورة متحفزة..هتف:

- هذه النقطة مهمة جدا.. لذلك اريدك أن توضحيها تماما.

- حدث لى ذلك حتى مع بعض الذين تعاملت معهم فى الحفلات وفى التلفزيون وغيره، أدهشتنى هذه الظاهرة جداً.. حتى أننى بت أظن - لكثرة تكرارها- أنه وباء أصاب البلد كلها، إلا أن المدهش أكثر.. أن هؤلاء الفاقدين ذاكرتهم يستردونها فجأة عندما يقابلون بريمادونا الحفل..ليحاولوا هم بدورهم أن يذكروها بأنفسهم!.

- هيه ..عظيم..عظيم

رغم أنها لم تستطع أن تعرف ما هو العظيم فى هذا الأمر الغريب إلا أنها استطردت:

- وهكذا لم أتقدم خطوة واحدة فى طريق المجد الفنى بعد عمل سنوات وسنوات فى هذا الحقل، كان هذا ما أفكر فيه وأنا أتصفح جريدتى..عندما وقعت عينى على إعلانك الذى توجهه إلى المغمورين فى التمثيل والغناء والأدب، لقد جذبنى عنوانه "هل تريد الشهرة والمجد والخلود؟".. اتصل بالبروفسير متولى عوض، لقد ظننتك وقتها مدير دعاية من نوع جديد.. تريد أن تضع خبرتك فى خدمة من يريد، لكنى بعد زيارتك يخيل إلى أنك لست كذلك.

ضحك البروفسير عالياً: لست كذلك فعلاً..إننى عالم أجرى بعض الأبحاث.

- أبحاث؟!، على أى شئ؟.

– مهلا..لقد سألت نفسى..لماذا يصبح بعض النــاس مشــهورين بينما يظل البعض الآخر مغمورين؟، وباختصار فطبعا خطوات بحثى لا تهمك كثيراً..بالأضافة إلى أننى قد لا أستطيع شرحها توصلت إلــى أن هناك إشعاعاً من نوع معين عندما يشع من أحـد الأشـخاص يجـبر كل من يتعرض له على أن يذكر هـذا الشـخص ، إن يحـاكى الضـوء المبهر الذى يجعل هذا الشخص يتألق..وإن كان ضـوءا غـير مرئـى، هـذا الإشـعاع موجـود عنـد بعــض السياســيين ..والنجــوم..ولاعبــى الكرة..فيزيد عدد عـارفيهم..وبهـذا يصبحـون مشـهورين، لذلـك فنحـن نجـد أحيانــاً أشــخاصاً متوســطى الموهبــة لكــن شــهرتهم جــاوزت الآفاق..بينما نرى غيرهم يملكون الموهبة والاستعداد والعزيمة لكنهـم رغم كل ذلك يبقـون دائمـا فـى الظـل، السـبب أن الأوليـن أوتـوا ذلـك الإشعاع الفريد دون الآخرين، وكلمـا زادت نسـبة هـذا الإشـعاع لـدى شخص ما كلما زاد عدد من يعرفونه ويسمعون به وينجذبون إليه!.

هتفت مندفعة : كما ينجذب الفراش ناحية الضوء؟.

ضحك : تشبيهك به قدر من المطابقة..لكن هناك تشـبيها أكـثر دقة أستطيع به أن أقـرب لـك الأمـر..فنقـول كمـا ينجـذب الحديـد إلـى المغنـاطيس، نعـم هذا الإشـعاع لـه خاصيـة مغناطيسـية تجــذب إلــى صاحبها النــاس..كـل النـاس، فيلتفـون حولـه ويحيطـون بـه ويتابعونـه دائما، عبد الحليم حافظ مثلا.. قطعا كانت لديه كمية من هذا الإشــعاع أكثر من أى شـخص آخـر، لا شـك أنـه كـان موهبـة فـذة ولكـن.. ألا

تعتقدين أن هناك –فى طول البلاد وعرضها– مواهب ربما تقاربه لكن أحدا لم يحس بها؟.

– بل إن هذا مؤكد.

– لماذا إذن؟

– لأن الفرصة لم تتح لأحد منهم

– الفرصة.. الحظ.. القسمة والنصيب.. الصدفة .. هذه كلها تعليلات غيبية يقولها من لا يعرف تفسيرها الصحيح، حيث لا بد من وجود تفسير علمى لكل شئ، لقد لفت نظرى فى حديثك أشياء تؤكد ما ذهبت إليه، مثلا إن الكثير من الملحنين سمعك وأثنى عليك..لكن أحدا لم يحاول أن يتبنى موهبتك..كما فعل بليغ حمدى مع عفاف راضى..مثلا، وغيرهما، ربما لم يكن صوتك بأقل جمالا من صوت عفاف راضى.. لكن بليغ لو رآك لما التفت إليك.. كما حدث ولا بد أنه لم يلتفت لأصوات أخرى لا بأس بها من قبل، لكنه ذلك الإشعاع الذى تتمتع به عفاف وحرمت منه أنت!.

قالت فريدة مبهورة : نعم..نعم.. هذا يفسر أشياء كثيرة..

ضحك البروفسير : لا تحاولى أن تسبقينى، فعلا إنه يفسر أشياء كثيرة، أنت مثلا جميلة.. بشرتك كما المخمل الناعم .. وعيناك ساحرتان، مفروض أن من يقع بصره عليهما مرة واحدة لا ينساهما أبداً، مع ذلك ينساك الناس ولا يتذكرونك إلا بجهد وعناء شديدين ..

كما قلت، حتى من لقيك..بل ومن تعامل معك أكثر من مرة، طبعا هذا ليس سببه ضعف ذاكرة الناس فهم يتذكرون أشخاصاً آخرين، السبب الحقيقى يكمن فيك أنت.. إنه ضعف ذلك الإشعاع لديك .

سألت بقلق : والنتيجة؟، أسلم بحظى وأكف عن السعى؟، هل أترك أحلامى تفر إلى بعيد..تضيع..تتلاشى؟!.

لمعت عيناه: ولماذا نشرت إعلانى ذاك إذن؟ ، بعد تجارب أعوام عديدة استطعت تخليق هذا الإشعاع فى معملى..ونجحت كل التجارب المعملية ولم يتبق إلا التجربة الأخيرة على إنسان، فهل تقبلين أن أشحنك بذلك الإشعاع ونرى بعدها هل تصبحين مشهورة أم لا؟

أجابت بحماس مندفع : لا أوافق فقط .. بل أرجوك، وحتى إذا انتهت التجربة بموتى فبقائى فى دائرة الظل موت أدبى.. وفى رأيى..الموت الفعلى أهون!.

صاح باستنكار : ما هذا الذى تقولين؟!، هل قال لك أحد إننى سفاح أجعل من الآدميين فئران تجارب؟، إذا فشلت التجربة- لا قدر الله- فإنك لن تشعى على الناس ولن تجذبيهم .. وبالتالى لن تصبحى مشهورة، أى ستظلين كما أنت الآن، هذا كل ما فى الأمر..لا أكثر ولا أقل.

– اتفقنا..وإذا نجحت التجربة فإننى على استعداد لدفع كل ما تطلب.

ضحك : أنا لا أريد شيئا إلا نجاح أبحاثى ، انظرى كم أنت مجنونة بالطرب؟ بنفس القدر وأكثر.. أنا مجنون بالعلم..

أسبوع كامل مضى وفريدة تتردد على معمل البروفسير متولى، بعده أخبرها أنها قد أصبحت مشحونة بقدر كبير من ذلك الإشعاع المبهر، وسألها عن أول حفل سوف تغنى به فأخبرته أنه سيكون بعد ثلاثة أيام، وما أسرع ما اشترى تذكرة له رغم عزوفه السابق عن مثل هذه الحفلات، وهو يتوقع أن حدثا هاما لا بد سيحدث فى ذلك الحفل.

لكن بعد يومين فقط..أى قبل الحفل بيوم واحد..سمع جيران المطربة فريدة صرخة شقت سكون الليل، فاقتحم بعضهم الشقة ليجدوا زوج المطربة جثة هامدة على الأرض.. وبجواره جلست فريدة وفى يدها سكين كبير يقطر دما، نظرت إليهم بعيون تحجرت داخلها الدموع وراحت تتمتم بذهول:

– كنت أحبه بجنون..لقد ضحيت فى سبيله بكل شئ..برضا أهلى حيث إنه دون مستوانا بكثير.. وأيضا بميراثى.. وكذلك طموحى الفنى، رغم ذلك أحب أخرى واتفق معها على الزواج بعد أن يطلقنى.. الخطاب يحوى كل ذلك بخط يده كان هناك..فى جيب

جاكتته اقرأوه فستعذروني، كلمات الخطاب وجمله وحروفه اجتاحتني كأنها سيول تكتسح امامها آخر حصون العقل، لا لن تهنأ به واحدة غيري بينما أنزوي أنا أجتر أحزاني..قتلته قبل أن يدمرني..في الصباح التالي، صباح يوم الحفل..فوجئ البروفسير متولي وهو على مائدة الإفطار بجرائد الصباح كلها تركز على خبر واحد، مطربة تقتل زوجها بسكين، مع التفاصيل المستفيضة والصور العديدة للزوجين منذ الزفاف وحتى الحادث، ثم صور القاتلة بعد الحادث، وصور للجثة عدا صور الجيران والزملاء بل وحتى البواب، وأخيرا رجال الشرطة.

مضى أسبوع كامل.. ولا حديث للصحف ..كل الصحف..إلا عن تلك الجريمة الفريدة للمطربة فريدة، ليس فقط في صفحات الحوادث..التي أفرغت تماما لوصف تلك الحادثة ومتابعة كل ما يستجد من أخبارها ومحاولة جلاء أي غموض يحيط بها- وإنما امتد النشر أيضا إلى باقي الصفحات، صفحات العلوم ملأتها تحليلات علماء النفس عن التغيير الذي جعل المرأة تستخدم السكين في القتل.. بعد أن انحصرت جرائم النساء من قبل على السم والقليل جدا بالرصاص، ودلالات ذلك التغيير وأسبابه ، وصفحات المرأة تقول بعض محرراتها إن السبب هو الظلم الشديد الذي انطوى عليه قانون الأحوال الشخصية الجديد للمرأة.. والذي اعتبرته بعض النساء نكسة للوراء في حين كن يأملن في مكاسب أكبر تعالج أوجه القصور في

القانون السابق، ويرحن يجهدهن أنفسهن كى يقدمن الأدلة على صدق دعاويهن، وصفحات الشباب تدلل بالجريمة على تمزق شباب هذا الجيل بين العديد من القيم، أما عن صفحات الفن فحدث ولا حرج..انطلقت تحكى بالأخبار والصور تاريخ حياة المطربة القاتلة.. مع حرص شديد على عدم إغفال أى صغيرة أو كبيرة فى تلك الحياة الحافلة، لقد خشى البروفسير عوض يوما أن يقلب الصفحات حتى صفحة الرياضة.. فيكتشف أن القتيل كان رياضيا مجيدا ومن ثم فإن المحرر الرياضى ينعاه ويبكى رفيع خلقه .

مع كل يوم يمر كانت حيرة البروفسير وتوتره وتمزقه تزداد حدة، ترى هل كان يحاول فى نهاية تلك الأيام أن يتخلص من كل ذلك.. عندما أحضر جميع جرائد الأسبوع ليرمى صفحاتها الواحدة تلو الأخرى بعيدا على طول ذراعه وهو يصيح.

– قولوا كل ما تشاؤون .. والغطوا كما تريدون..ولكننى مع ذلك نجحت .. نجحت.. نجحت رغم أنف كل ما كتب وقيل..نجاح فاق الخيال!.



هل كانت تسير أم تطير؟، الحب والشوق واللهفة تدفعها فتكاد قدماها لا تلمسان الأرض، أخيراً. ها هوذا. بيت الله . أول بيت وضع للناس، ويتفجر داخلها زلزال، الزلزال ينحسر بعد دقائق ليسلمها إلى ذهول، هل هى تقف حقا أمامه؟ أمامه هى فعلا أم أنها صورة فى خيالها تتبدى لها الآن كما تبدت من قبل مئات وآلاف المرات؟، منذ سنوات عديدة وهى تتمنى على الله أن يكتب لها زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. والحج إلى الكعبة المشرفة، وكم تخيلت نفسها وقد تحقق الحلم فذهبت إلى هناك ووقفت قبالة الكعبة.

وضعت يدها على عينيها .. ثم رفعتها، لا .. مازالت الكعبة شاخصة أمامها .. هذه المرة هى فعلا فى الأراضى المقدسة، حمداً لله أن كتبها لها قبل أن يتسرب العمر، تفتح عينيها على سعتهما تملأهما من مرأى الكعبة .. التى تتألق كما الجوهرة الثمينة، الأنوار تشع من حولها ومن فوقها وتحتها .. ولا عجب .. لقد بناها الملائكة.. وهم من نور فتضوأت هى الأخرى بالعطر والنور، لكنها بعد دقائق تغمض عينيها، وكأنها ضنينة باللحظة أن تنتهى سريعاً، أو كأنها تستكثر على نفسها أن تحظى بهذه النعمة الكبرى والمتعة العظمى كل هذا الوقت!، كم تمنت لو توقف بها الزمن عند هذه اللحظة.

انهمرت دموعها تسيل وتسيل، ها هـو شـوقها الكـامن يتسـرب مع الدموع، تتلو بعض الآيات والادعية للنبى عليه الصلاة والسـلام.. وأيضاً للإسلام والمسلمين عامة، ثم انثنت تدعـو لأولادهـا وبناتهـا .. كل بما يناسبه ويتمناه، بدأت بـآخر العنقـود .. خـالد ثـم البنـات حتـى وصلت إلى بكريها .. رضـوان . فـإذا بـالدموع تـزداد غـزارة، حتـى راحت زميلاتها فى السكن يربتن على كتفيها مهدئات، خاصة الحاجـة فاطمة.. الناظرة بإحدى المدارس الثانوية، طيبة القلـب إلـى حـد كبـير .. تقدم العديد من الخدمات لجميع زميلاتها.. دون حتى انتظار لطلبها .. مثل تغيير العملـة أو طلـب المكالمـات الخارجيـة الـخ الـخ، هدأت مشاعر أم رضوان قليلاً .. فراحت تحدث ربها بصوت مسموع:

ـ هل يرضيك هذا يا إله العـالمين؟، رَضـوان يـترك الأرض؟، أرض والده وأجداده.. ليعمل سائقاعلى سيارة نقل؟، هل إنسـان عـاقل يفعل هذا يارب؟، إنها ليست أى أرض.. بل أرض تدر الشهد، أرض حدائق.. مزروعة كلهـا بأشـجار المـانجو والجوافـة والـبرقوق.. عدا النخيل، بين الأشجار وبعضها نـزرع الـذرة والخضـر، أيـام المرحـوم زوجـى.. كنـا نعمـل فيهـا نحـن السـبعة .. أنـا وهـو .. والولـدان .. والثلاث بنات، أكمل رضـوان فـترة الجيـش وعـاد إليهـا .. فـى حيـاة والده، ثم بـدأ عددنـا يتنـاقص .. تزوجـت البنتـان الكبيرتـان.. عزيـزة وزنوبة .. ثم اخترت يارب شريك عمرى لجوارك الكريـم، لكـن هـذا لم يؤثر كثيرا على العمـل فـى الأرض، كـان يكفـى وجـود رضـوان،

فتحى ونحن السبعة نعمل.. كان هو وحده نصف القوة العاملة، الوالد تقدم فى السن .. وخالد لا يزال صبيا.. وجهد البنات ضئيل بطبيعته.. وأنا أعمل قليلا لاهتمامى بشئون المنزل والزوج والأولاد، لكن الأيام كانت تخفى لنا فى جعبتها الكثير، بدأت ألمح ضجر رضوان من العمل فى الأرض، يزداد هذا الضجر كلما سافر إلى القاهرة لزيارة الأصدقاء أو لقضاء بعض المصالح، هو" نبيل" ..زميله السابق فى الجيش، كما السوسة.. راح ينخر فى تفكيره.. اشتركت معه فى ذلك..القاهرة نفسها !،أغرته مباهجها بمثل ما أغراه نبيل بالمكسب الكبير المنهمر كالمطر.. إذا ما عمل معه فى شركة النقل التى آلت اليه بعد وفاة والده ، كان الاغراء قويا فسرعان ما أنهارت مقاومة رضوان، كان يوما أسود من قرن الخروب عندما جاء يعلننى بالنبأ، صرخت "وتترك الأرض تموت؟!" فيرد "ولماذا تموت الأرض اذا تركتها؟، أمامك أكثر من فكرة..نؤجرها.. أو نستعين ببعض الفلاحين الأجراء من...."قاطعته "تعرف أن هذين الخيارين غير معقولين عمليا، فأين هم الفلاحون بالأجر وقد هجروا جميعا مهنة الفلاحة وذهبوا إلى بلاد البترول.. ليعودا وقد نسوا - أو تناسوا — هذه المهنة تماما، أما تأجيرها .. فأيضاً مستحيل أن أسلم أرضنا طائعة مختارة لشخص "يركبها" وكأنه قد تملكها .. لنعجز بعد ذلك عن زحزحته منها "غمغم" عموماً أرض الحدائق لا تحتاج مجهودا بدنيا كبيرا فتستطيعين أنت العودة للعمل بها، بعد وفاة والدى لم يعد عملك

بالمنزل يستلزم وقتا طويلا، ومعك خالد وخديجة "وأواجهه" تضحك عليّ أم على نفسك يا رضوان؟، خالد تعدى الثامنة عشرة .. ولن تمر شهور حتى يطلب فى الجيش.. ليقضى به ثلاث سنوات كل سنة منها أطول من النخلة، وخديجة قاربت على السابعة عشرة .. أى أكبر من السن التى تزوجت فيها شقيقتاها، وفعلا تقدم لها - وأنت تعلم ذلك - أكثر من عريس ، ولم أكن أنتظر إلا أن نجمع البرقوق .. ثم أشاروك لنختار أفضلهم، وإذن فهل أستطيع وحدى أن أخدم الأرض؟، لو تركتها وتركتنا فلن يكون أمامى سوى بيعها، تصورها أنت .. هل الأرض التى ارتوت بعرقك وعرقى وعرق والدك وجدودك.. إن كل ذرة من ترابها معجونة بذلك العرق الغالى.." قاطعنى ساخرا "هذه الكلمات بنصها سمعتها من فم ممثلة فى احدى حلقات التليفزيون منذ أسابيع!!" طال بيننا الجدل .. لكن كلماتى كانت ترتد إلىّ ميتة .. دون صدى، استعنت بأخواله وأبناء عمومته.. الكل حاول أن يثنيه عن عزمه.. لكنه أصم أذنيه عن كل محاولة، بدا وكأنه يريد أن يغسل يديه تماماً من كافة همومنا، خرج عن طوره فى إحدى المناقشات وصرخ فىّ "تموت الأرض أهون من أن أموت أنا .. إننا هنا مدفونون ونحن بعد على قيد الحياة، أريد أن أجرب حظى .. أن آخذ فرصة عمرى!"، و"ورحل.. مصطحباً زوجته وأولاده الثلاثة .. دون أن أراه، حضر ليسلم علىّ قبل سفره لكنى رفضت مقابلته.

يبدو أن ذكرى ذلك اليوم كانت قاسية جداً على نفس أم رضوان .. حتى لقد اختنقت الكلمات فى فمها .. وتوقفت .. لحظات.. ثم عادت تكمل مناجاة ربها أو تفضفض بآلام تملصت أخيراً من أسرها بين ضلوعها:

- بعد استبعاد فكرتى تأجير الأرض أو استئجار فلاحين .. لم يعد هناك سوى خيارين آخرين .. بيع الأرض .. أو تأجيل زواج خديجة حتى تعمل بها معى، بيع الأرض كانت أيضاً فكرة غير واردة.. إطلاقا، كنت أهدد رضوان بها فقط ربما يعدل عن السفر،وبدون كلمات ممثلى التليفزيون .. كانت الأرض عندى أغلى من عينى، فىمثل غلاوة أولادى تماماً، إذن لتبق خديجة، وهى لن تصبح عانسا إذا انتظرت أعواما ثلاثة حتى يعود خالد من الجيش، خاصة وهى لا تهتم بالزواج كثيراً، إراحة لضميرى حدثتها فى الأمر.. وفهمت منها ذلك، وإن كان ضميرى يرفض أن يستريح تماماً.. كثيرا ما يفاجئنى بسؤال ساخر "وهل كنت تتوقعين منها - حتى لو كانت تتوق للزواج بسرعة - أن تخبرك بذلك صراحة؟!، أين إذن حياء العذارى .. الريفيات على وجه الخصوص؟" ، طبعا لم أكن أجد ما أرد به عليه فألوذ صامتة، الحقائق عنيدة .. مثل الصخور الصلدة ، فهل ترانى ظلمت خديجة فعلا؟، وماذا عساى أفعل؟، دبرنى يا رب الكعبة.

ضحكت الحاجة فاطمة وهى تربت على كتف الحاجة أم رضوان مهونة:

- كأنى بك فى حديثك هذا تقدمين بلاغا!، وفقط كان عليك أن تبدئيه بقولك هذا بلاغ لمن يهمه الأمر!.

تفكرت أم رضوان قليلا ثم غمغمت : أنا فعلا أقدمه كبلاغ .. ولكن.. إلى من بيده الأمر

- حسنا .. بدأ المؤذن .. فلنستعد للصلاة.

وتمر أيام .. وسط هذا الفيض من المشاعر .. التى تشف حتى تكاد تحلق بأصحابها فوق السحاب، فى اليوم الرابع تناولت أم رضوان وزميلاتها طعام العشاء .. ثم بدأن الاستعداد للنوم، حين طرق الباب ودخل شاب متين البنيان، قبل أن يسأل أى سؤال صاحت الحاجة الحنون:

- رضوان ؟ .. ابنى؟!.

أقبلت تعانقه فى حرارة وشوق .. لكنها ما لبثت أن أبعدته عنها وهى تسأل بلهفة:

- ماذا حدث ؟، لماذا ارسلوك إلى؟..

ضحك رضوان : لم يرسلنى أحد .. أنا أعمل هنا منذ أسبوعين، عندما أعلنوا أن السعودية تطلب سائقين موسميين ـــ قدمت طلبا بذلك .. وقبل طلبى.

- لكن .. كيف بالله عرفت مكانى؟

- قبل حضورى ذهبت إلى البلد أسأل عن مكان إقامتك هنا حتى أقابلك لكنى لم أجد أحدا يعلم شيئا عن ذلك، بعد وصولى توجهت إلى مقر البعثة المصرية.. حيث قابلت مسئولا كبيرا أخبرنى أن المطوف الحريرى- وهو المنوط بحجاج قرعة الجيزة - هو الذى يستطيع إفادتى فى هذا الأمر، وأعطانى عنوانه.. فذهبت إليه حيث ذكر لى أنكم فى المدينة المنورة ما زلتم، وأنكم سوف تحضرون إلى مكة فى الرابع من الشهر التالى، وفى الموعد المحدد أفادنى بحضوركم وبدئه فى عملية الفرز، واليوم فقط قدم لى كشفا يحوى آلاف الأسماء فبحثت حتى عثرت على اسمك وأمامه هذا العنوان.

- ياه يا رضوان! .. لقد تعبت كثيرا.

- لكننى أخيرا رأيتك، واطمأننت وارتاح قلبى من جهتك، أنت أيضا عندما تسمعين قرارى سيرتاح قلبك من جهتى، لقد قررت ترك عملى كسائق.. وسأعود للأرض!

وتهتف أم رضوان من سويداء القلب: حقا ما تقول يا رضوان ؟!.

– وهل تحتمل هذه الأمور المزاح؟، وزيادة فى التأكيد أخبرك أن سالم.. ابن الحاج عمران.. كان قد طلب منى يد أختى خديجة.. عندما سافرت إلى البلد، بالطبع يومها لم أستطع أن أرد عليه وأنا أعرف كم تعتمدين عليها فى عملك بالأرض، أمس فقط أرسلت إليه خطابا أعلنه بموافقتى على الخطبة.. وأحدد معه موعد قراءة الفاتحة.. بعد عودتى وعودتك.

تنظر إليه بتمعن.. وكأنها تريد أن تتأكد أنه حقا جاد.. فإذا بها تلمح – بقلب الأم– سحابة قاتمة تعكر الابتسامة الحلوة للعيون السود، أحست أنه يتخذ من ابتسامته هذه ستارة يحاول أن يخفى بها ما بداخله، من ثم راحت عيناها تحاولان اصطياد عينيه.. فتفلح أخيرا رغم مجاهدته للإفلات، تسأله بحزم:

– لكن لماذا هذا القرار؟، ماذا حدث؟.

– لاشئ.. حنيت للأرض.. ألست ابنها؟.

– بل هناك أشياء وأشياء، أنا طبعا جد سعيدة برجوعك للأرض.. لكننى سأظل مشغولة عن كنه ما عانيته .. ألا أرحتنى وصارحتنى؟

تنهد رضوان : منذ تركت الأرض وأنا تعبان، عام كامل مر علىّ.. أدركت كم كان نبيل مبالغاً فى الخير الذى سينهمر، أغرقنى

فى سحابات خيال وضلالات وهم كاذب، لا .. الحقيقة الداخل كان كبيرا فعلا .. لكن المصروفات أكبر، وزاد الطين بلة أن تصدع المنزل الذى كنا نسكنه، وظللت أبحث عن سكن آخر بإيجار معقول فلم أجد أبداً، ولم يكن معقولاً أن نظل بالمسكن القديم حتى ندفن تحت أنقاضه فاستأجرت شقة بأجر خرافى يبتلع جزءاً كبيراً من الدخل، الأولاد لم أستطع نقلهم إلى مدارس قريبة من السكن الجديد فأصبح انتقالهم يومياً يكلفنى الكثير، وبدأت زوجتى تتحسر على أيام البلد التى ولت .. حيث منزلنا الذى لا ندفع فيه أبيض ولا أسود، أيضاً المدرسة بجوار المنزل، الخضر - التى جنت أسعارها فى العاصمة — موجودة فى أرضى، عدا الونس واللمة الحلوة مع أهلنا وناسنا وحبايبنا .. رتم الحياة كلها .. الهادئ .. المرتاح، لكن .. مع كل مقارنات زوجتى لم استطع اتخاذ قرار بالعودة للبلد .. صعب جداً .. تعودنا حياة المدينة، ثم كان هذا الإعلان بطلب سائقين بالسعودية.

قطعت الحاجة فاطمة حديث رضوان بدخولها تحمل الشاى .. ليهتف:

- معقول؟!، سيادتك تتعبين نفسك هكذا؟.

وترد بمرح : لعلمك .. جميعنا أصبحنا نعرفك ونعزك .. لكثرة ما حكت لنا والدتك عنك!

ويضحكون ويبدأون يرشفون الشاى، قالت أم رضوان وكأنها تذكر ابنها بما انقطع من حديثه :

- أعتقد أن مرتبك هنا كبير.

رد بمرارة : طبعاً .. كبير جداً .. لدرجة تمنيت معها لو استطعت أن أدبر عقد عمل دائم بعد انتهاء موسم الحج .. لكن...

قطع حديثه وهو يمر بيده على خده الأيسر .. ثم عاد يكمل بحدة وإنفعال شمت معه الأم رائحة حريق الكلمات على شفتيه :

- قلت لك إنه كان من الصعب علىّ أن أقرر العودة للأرض رغم كل متاعب الحياة فى القاهرة، لكنى هنا .. وفى دقيقة واحدة .. أقسمت على ذلك!

وجف قلب أم رضوان، ترى ماذا حدث فى هذه الدقيقة الواحدة؟ فى حين استمر رضوان يحكى:

- رغم تدربى على شوارع مكة ومسالكها .. تهت بالأتوبيس المقل لعدد من الحجاج.. فى طريقهم إلى مسجد السيدة عائشة للإحرام، فظللت أدور وأدور .. حتى وصلنا أخيراً متأخرين عن موعدنا بأكثر من ساعة .. لأجد المطوّف الذى أعمل تبعه فى غاية من الثورة والحنق، اعتذرت له أننى ظللت الطريق .. فإذا بثورته تزداد.. فيرفع يده و.. يصفعنى على وجهى .. بكل قوته .. أمام جميع الناس .. ليتطاير الشرر من عينى!.

توقف عن الكلام وعاد يمر بيده على خده الأيسر مرة أخرى، خبطت أمه صدرها:

ـ ياحبة عينى .. يضربك؟.. شلت يده، وأنت .. ماذا فعلت؟

ـ كأن الصعفة كانت فوق قلبى وليست فوق وجهى، لم يجرؤ إنسان قبله أن يفعلها، تذكرين .. أبى نفسه لم يصفعنى يوما، ثارت كارمتى وهممت أن أرد له الصفعة عشرا، لكنى عدت وضبطت أعصابى لسببين .. الأول خشيتى من البهدلة فى الغربة .. فهو قد يشكونى للشرطة وهم هنا يحسبون لمواطنيهم ألف حساب.. وقد أسجن أو يحكم على بغرامة كبيرة، والسبب الثانى أحسست أننى أنقم على نفسى بأكثر من نقمتى عليه.. رغم فعلته الفظيعة عندما ظن أنه لم يشتر بنقوده ساعات عملنا فقط .. وإنما اشترى كرامتنا وآدميتنا، لكنى أستحق اللوم بأكثر منه، استحققته منذ تركت المزرعة.. كانت أرضى وعرضى، ملكى ومملكتى، نبع الخير ومعقل الشرف والكرامة، أعمل فيها كما أحب وأهوى .. وآمر فوقها وأنهى، من ثم أعدت ذراعى إلى جانبى . وقد عقدت العزم فى توها ولحظتها.. أننى إلى الأرض وإليك يا أمى .. عائد .. تائب .. نادم، وأرجو أن تقبلينى وتغفرى غلطتى.

من بين دموعها هتفت الأم بصوت متهلل يرن ـ من فرط فرحته ـ كقطع الفضة:

ـ ما أسعدنى بهذه العودة، أهلا بك يا ابنى وأبى وأخى .. فى دارك وأرضك.

غمغم رضوان : هل تصدقين؟، إننى لست آسفا على كل ما حدث، فلولاه.. ربما ما عرفت قيمة الأرض وما تعنيه وما تمثله، بالطبع لا أحد يتعلم مجاناً .. وإنما لابد أن يدفع الكثير.

وهى تجمع الأكواب الفارغة سألت الحاجة فاطمة .. حضرة الناظرة.. الطيبة سؤالا بدا وكأنه سؤال عارض:

ـ ترى متى كان حادث المطوف .. ذلك الذى دفعك لأن تقرر العودة؟

ـ منذ حوالى ثلاثة أيام ، آه .. بالضبط يوم الخميس الماضى.

غمزت الحاجة فاطمة بعينها إلى الحاجة أم رضوان:

ـ أى فى اليوم التالى مباشرة لتقديمك البلاغ!!.

أردفت وهى تبتسم ابتسامة شفافة :

ـ كنت محقة عندما قلت إنك تقدمينه إلى من بيده الأمر.

كفكفت هنية دموعها ثم أكملت بشفتيها بعثرة الكلمات :

ـ أجل لم أعد أحتمل، لماذا تندهشين؟، أى امرأة لا تقبل أبداً أن يتعلق زوجها بأخرى .. كل هذا التعلق.

.شهقت شقيقتها خديجة : وماذا كنت تفعلين إذن لو أنه تزوج من امرأة أخرى عليك .. مثل أم أنور!

غمغمت باستهانة : أووه، ربما كانت مصيبة أم أنور أهون، فمادامت الاثنتان زوجتيه فإنه سيحبهما كلتيهما على قدم المساواة، أما عوضين فإنه يحب عزيزة بأكثر مما يحبنى، بل بأكثر مما يحب أولاده، إنها أغلى شئ فى الوجود بالنسبة له، أما أمورى أنا فهى على هامش الهامش، عمره يوما ما سأل.. هل أكلت أم لا.. هل أنا سليمة أم متوعكة؟، هل.. هل.. كل اهتمامه موجه لأكلها ونومها وحمامها وصحتها، يصحو فى الصباح وقبل أن يغسل وجهه يذهب ليراها.. ثم لا ينام قبل أن يطمئن عليها، أليس من حقى إذن أن أضيق بها .. بتلك التى اغتالت حقى فى قلب زوجى؟!، صدقينى .. أحياناً أفكر فى أن آخذ أولادى وأذهب إلى منزل أبى .. تاركة لهما الدار كلها كى يشبع بها!..

بدأت خديجة تشم رائحة حريق الكلمات على شفتى شقيقتها .. خبطت على صدرها:

- وماذا يقول عنك الناس؟، قطعا سيتهمونك بالجنون عندما يرونك تغارين من .. بقرة!، تتركين منزلك لأن زوجك يحب بقرته؟، من حقه طبعاً أن يحبها.. أليست هى التى تمنحكم اللبن والجبن والزبد؟، أليست هى التى تعطيه عجلا كل عام يبيعه ويشترى السماد والتقاوى وكسوة الشتاء لكم؟، أليست هى التى تعاونه فى الحقل .. تدير الساقية والمحراث وو..

قاطعتها : على مهلك، إنك تعددين لى خير البقرة وكأننى لا أعرفه، ماذا .. هل أنا قادمة من أوربا .. أوحتى من البندر؟، إننى فلاحة وأعرف ماذا تعنى البقرة لصاحبها، ولذلك فكل فلاح يحب بقرته أو جاموسته طبعاً .. لكنه يحبها بعقل وليس مثل عوضين .. إنه لا يحبها بل هو متيم بها، لقد سماها عزيزة، هذه العزيزة هزمتنى بلا معركة، ليتك ترينه وهو يطعمها ويربت عليها ويناجيها كأنها معشوقته الوحيدة، أو على الأقل الأولى .. قبلى وقبل أولاده، لدرجة جعلتنى أكرهها، نعم إننى أكرهها من كل..

قطع كلامهما صراخ يأتى من الخارج، فأسرعتا لتجد النار وقد شبت فى منزل جار لهم تقوم زوجته بالخبيز أمام الفرن، وتكفل الهواء الشديد فى تطاير بعض الشرر إلى زريبة عوضين .. مما جعل النار تمسك ببقرته الغالية عزيزة، لولا أن سارع الجيران بشهامة الفلاحين المعروفة يهبون للنجدة، البعض حمل الماء فى الأوانى ليطفئ بها النار .. والبعض الآخر ألقى البطاطين على البقرة،

ثم تأتيهم النجدة من السماء .. بدأت تمطر خفيفاً وكأنها دموع الطبيعة تذرفها معتذرة بها عما بدر منها: وهكذا لم تمض نصف ساعة إلا وكان الحريق قد أخمد وتمت السيطرة عليه.

وقف عوضين مذهولا وهو يرى الدموع تسيل فوق خدى هنية.. كأنها حبات مسبحة تقطع خيطها فتساقطت متتالية، ربت كتفها وهو يهمس:

ـ كفاك هذا .. لقد تعبت جدا .. طوال الليل وأنت تمسحين بالدهان المخفف جسد عزيزة المسكين، لقد أصبحنا الآن قرب الفجر ولابد أن تستريحى، أنا سأحل محلك وأساساً لها الدهان.

جففت هنية دموعها .. لكن الدموع خلفت على وجهها سمات حزن شفاف .. كالصبح ذاته .. قالت بصوت واهن مشبع بقطرات الندم المرة المذاق:

ـ لا.. لست متعبة.. على الإطلاق، على العكس .. إننى أحس بالراحة كلما مسحت حروقها وخففت من ألمها، وكأننى أمسح عن نفسى أدرانها، لست أدرى.. أى شيطان كان قد تلبسنى حتى جعلنى أكرهها وهى التى تفيض بالخير على بيتى وأولادى، لا تتصورى.. عندما رأيتها تتألم أحسست كأن الحروق التى فى جسدها فى قلبى أنا، لكن.. أكثر ما أثر فىّ.. نظرة عينيها الواسعتين لى، وكأنها تعتب علىّ ضيقى بها!.

عاد عوضين يربت كتف هنية بحنان أكبر:

- ألم أقل لك إنك متعبة جداً، ها أنت تتفوهين بكلام كالخيال!.

واحتد صوت هنية: ألا تصدقنى؟، تظننى أخرّف؟، أقسم لك رأيت نظرة العتاب فى عينيها قبل أن تستدير وتبتعد عنى، وبعد أن عالجتها.. تغيرت نظرتها لى إلى ود وامتنان حتى أنها استكانت برأسها فى صدرى، وما الغريب فى ذلك.. ألم تكن دائما.. عندما تراك.. تتمسح بك ولا تفعل ذلك معى قط، هل تظنها لا تحس شعور من حولها؟، كنت أنت تطعمها وتربت رأسها.. وأنا ألقى الطعام أمامها وكأننى أقول لها "بالسم الهارى"!.

توقفت قليلا لاختناق صوتها بالدموع.. ثم استطردت بعد أن تمالكت نفسها:

- تصور .. لم أعرف قيمتها ومكانتها فى نفسى وفى دارى.. إلا عندما أحسست أنها توشك أن تفلت من بين أصابعنا.. تتلاشى.. تضيع.. لا قدر الله أبداً.. أبداً.

انفضت الجلسة ودخلت "وهيبة" إلى المطبخ مكسورة الخاطر، في حين اتجهت الهانم الكبيرة إلى غرفتها محاولة النوم، لكن النوم بدا ساعتها مطلبا عزيز المنال، في داخلها كانت أشتات عاصفة تتجمع.. اندفعت قائمة من سريرها، لم تناد إبنتها أو الشغالة أو أى أحد .. اعتلت كرسيا وجذبت حقيبتها من فوق الدولاب، مازالت العاصفة تحرك يديها وهى تجمع ملابسها وتضعها داخل الحقيبة بغير نظام.

لابد أن تعود إلى منزلها، مندهشة جدا من نفسها أن وافقتهم على رأيهم، لقد تكأثروا عليها .. كلهم، ابنها مصطفى .. وزوجته، وبناتها الثلاث "درية وزكية وفوزية"، زوجى الأخيرتين، عدا أنها كانت تتألم بدرجة تفوق قدرتها على التحمل، إلى جانب آلامها كانت أيضاً فى حالة غير طبيعية، الخوف يملأ جوانحها، بل الخوف كلمة مخففة.. تستطيع أن تقول الرعب، من تلك الفكرة التى كانت واردة ومحتملة بنسبة كبيرة.. أن يكون هناك كسر بالعظام يحتاج إلى جبس يقعدها فى الفراش دون حراك عدة أشهر، بل كان هناك احتمال أقسى.. رفضت حتى أن تذكره لأولادها، لكن وجومهم أكد لها أنهم أيضا يفكرون فيه .. حالة الحاجة نفيسة ـ التى نتجت عن سقوطها فى الحمام.. بل ولنفس السبب، عندما كانت تنحنى لتخلل الماء بين أصابع قدميها كما تقتضى فرائض الوضوء ـ جاء الكسر أعلى الفخذ قرب الحوض، ولم يكن الجبس ممكنا فى هذا الموضع.. فاضطر الأطباء

لتثبيت مسمار، لكن الأمر استغرق شـهورا فـى عذاب متصـل، قـالت ابنتها الكبرى درية:

ـ أرأيت يا أمى ؟.. كان عندنا كل الحق فى رأينا الذى رفضت حتى مناقشته، عدم صواب إقامتك وحدك..

ولم ترد، فى ذلـك اليـوم قـال أكـثر مـن واحـد مـن الحـاضرين كلاما يحوى مغالطات.. بل وغلطـات لكنهـا لـم تنبس .. رغـم ورود الرد حتى طرف لسانها، لكنها كانت عازفة عن الكلام تمامـا يومهـا.. وإلا لردت على درية "وهل لـو كنـت فـى مـنزل أحدكـم .. هـل كنتـم ستحضرون لى حنفية الماء حتى السرير.. وبذلـك أتفـادى الوقـوع؟!، واستمرت المناقشـات، لـم يكونـوا يحـاولون إقناعهـا بالإقامـة عنـد أحدهم.. بل كان كل منهم يقدم الحجج التـى يستند إليهـا فـى أفضليـة منزله لها، وكأن إقامتها فى منزل واحد أو واحدة منهم أصبحت أمـرا مؤكداً ومفروغا منه.. ولـم يبـق إلا تحديـد ذلـك المـنزل، لقد أغراهم على أن ينفردوا بصنع القرار دون حتى استشارتها فيه.. ذلك الصمت الغريب الذى حط عليها!.

فى أثناء مناقشاتهم قال بعضهم كلمات آلمتها دون أن يشـعروا، وبالطبع دون أن يقصدوا..رغم أن دافعهم الأول كان حبهم الكبير لهـا ولهفتهم الشديدة عليها، كانت واثقة بذلك تماما ولكن، قال مصطفى:

– الأم يجب يجب أن تقيم فى منزل ابن لها وليس ابنة، ففى أى بيت الرجل الملزم بالإتفاق.

وأحست بشئ من الضيق، كان معنى كلامه أنها لو أقامت عند واحدة من بناتها فإنها ستكون عالة على زوجها، حماك الله يا فوزية..أحست كأنه بهذه الجملة قد قذف بالكرة إلى ملعبها..فما أسرع ما أعادتها إليه ببراعة مسجلة هدفا سريعا..قالت:

– ماما عندما تقيم فى منزل أى منا فإنها–حتى تكون مستريحة نفسيا– ستنفق من دخلها الكبير، فطبعا لا يوجد تكليف بين الأم وأولادها، وبذلك يصبح الأمر سواء بين الابن والابنة، هذا فى حالة ضيافتها وهى فى تمام صحتها، أما عندما تكون مريضة فسيدة المنزل هى التى ستقوم على خدمتها..وطبعا ابنتها أولى من زوجة ابنها بذلك.

غمغمت زوجة مصطفى: اننى أعتبرها مثل أمى، وأعتبر نفسى مثل واحدة منكن تماما.

ضحكت درية : لكن عندما يوجد الماء..يبطل التيمم!.

كانت هذه الجملة بمثابة فصل الخطاب بالنسبة لمصطفى..حيث أخرجته من الحلبة نهائيا واستأنفت الشقيقات الثلاث المناقشة، قالت درية:

-منزلى أنا أنسب، بعد وفاة زوجى احتاجها لتؤنسنى، ثم إنها -لهذا- ستكون عندى على راحتها.

وأحست بغصة، كان معنى كلامها أن وجودها عند فوزية أو زكية..قد يضايق زوجها، ومن ثم فسيكون لزاما عليها أن تتحرك بحساب حتى تكون المضايقة أخف!، وقالت زكية:

- على العكس.. وجود رجل فى المنزل سيكون أفضل، حتى يتحمل مسئولية طلباتها وعلاجها الذى لا أحد يعلم ماذا سيستلزم.

فى دخيلتها استنكرت هذا المنطق، فهى حتى من أعوام طويلة- وقبل أن تتطور النظرة إلى المرأة- كانت ترفض هذا التفكير، فلم تتصرف أبدا على أنها تنطوى تحت مسئولية زوجها وإنما على أنها إنسانة تستطيع تحمل مسئولية نفسها، عندما لم تسفر مناقشة الشقيقات عن اتفاقهن جميعاً على رأى..سألوها.. لكنها لم تستطع اختيار منزل واحدة من بناتها كى لا تغضب الباقيتين، حتى أنهى كلام الطبيب هذا الخلاف.

طيلة فحص الطبيب لساقها وهى تبتهل إلى الله ألا تكون هناك كسور..أقسى أمر على نفسها أن تحتاج لطلب شئ يخصها من أى إنسان، حتى لو كانت ابنتها، واستجاب الله لدعائها.. مجرد رضوض فقط، لكن لابد من الراحة التامة.. والإقامة فى شقة مليئة بالشمس إلى أكبر حد، صاحت درية بفرح:

– أكثر شقة مشمسة فى القاهرة كلها شقتى، إننى عندما أجلس فى الفيراندة القبلية أحس كأن الشمس تضفر خيوط اشعتها الذهبية فى ضفيرة أو تاج تكلل به رأسى! .

وقال مصطفى وهو يسلم على شقيقاته: أمنا بركة، ولن تنفرد بها واحدة، بعد شفائها لا بد أن تقيم عند كل منا بضعة أشهر.

حتى هذا الكلام لم يسعدها، ما هذا استصبح مثل المهاجرين..كل يوم فى منزل؟!، قالت فى نفسها "لأدعهم يقولون ما يشاءون، وبمجرد أن أستطيع وضع قدمى على الأرض سأصمم على العودة إلى منزلى. وقد حدث..لكن درية اعترضت واحتجت واستنكرت، قالت لها بصريح العبارة:

– عندما كنت فى منزلك كنت دائما مشغولة عليك، كلنا كنا مشغولين عليك..لدرجة أننى لم أكن أستطيع التركيز فى عملى كما أحب..ولا الاستغراق فى النوم كما ينبغى، الأن نحن مرتاحون.

– ردت عليها باندفاع: ترتاحون على حساب تعبى أنا؟!.

بهتت درية، قفزت على ملامحها مشاعر خيبة الأمل..حتى لم تستطع أن ترد لكن التعبيرات التى ارتسمت على وجهها أقنعت الأم بأن كلمتها كانت تفتقد الكياسة، نعم .. بعد كل خدمتها لها وعنايتها بها تقول ذلك؟!، قالت فى نفسها "كنت ألومهم على كلمات لم

أستحسنها..وها أنـذى أقـع فـى نفس المطـب" راحـت تحـاول إصـلاح الكلمة:

- أردت أن أقول..أقصد يعنى..بعدى عن بيتى، تعلمين طبعـا أن لا أحد يستريح إلا فى بيته.

- وبيت ابنتك مثـل بيتـك تمامـاً، لمـاذا لا تعتـبرين هـذا البيـت بيتك؟

- لسبب واحد بسيط..أنه ليس بيتى!.

- حسنا نعود إلى الحديث عن تعبك، أريد -بل يجب- أن أعلم سببه، أحد الأولاد أزعجك؟..أم أنا قصرت؟.

- أبدا يا درية، على العكس.. ما يضايقنى تعبـك فـى خدمتـى، فتكفيك التزاماتك فى العمل وطلبات الأولاد.

- وماذا فى ذلك يا أمى؟، طيلة حياتك وأنت تعطين.

وكـادت تبكـى : والآن..شـخت حتـى لـن أعـود قـادرة علـى العطاء؟، هل يجب أن أحال إلى المعاش؟، ولكـن ليـس عـن أى عمـل ..فلم أكن أعمل..لكنـه معـاش مـن الحيـاة، اتعرفيـن مـاذا يعنـى ذلـك، معناه أننى لم يعد لـى نفـع، وعلـى أن أقبـع بجـوار أحـد الأركـان فـى انتظار الموت.

وفقدت درية أعصابها فراحت تعتب على أمها بحدة، ثم إذا هى تبكى، ربتت السيدة خديجة على رأس ابنتها وهى تعلن أنها باقية، شعورها بالذنب لكلمتها.. ثم خشيتها من غضب درية وانفعالها- وهى تعلم مدى عصبيتها- جعلاها تغير رأيها، وسرعان ما هدأت الابنة وراحت تقبل أمها، ثم مضت تحاول إقناعها بصواب هذا القرار..بل حتميته، وتبسط الأسباب والحيثيات، ولم تجادل الأم، لا تستطيع أن تجارى ابنتها فى ذلك، لها قدرة كبيرة فى الدفاع عن منطقها، وسوق الحجج والأدلة والبراهين المؤكدة له، وربما لهذا -بجانب قوة شخصيتها- وصلت إلى مكانتها الكبيرة فى عملها، لكن هذا الموقف بالذات لم يكن يندرج تحت لواء المنطق بقدر ما تحكمه المشاعر، فقط كيف كان فى وسع الهانم الكبيرة أن تصف لابنتها مشاعرها التى تشبه نقل الإنسان من منزله بنقل شجرة من تربتها، فى التربة الجديدة لن تزدهر وتورق كما كانت.. بل قد تذبل وتزوى، لن تستطيع درية أن تحس شعور شخص ينام فى غير فراشه.. أو فراشه فى غير منزله، تنهدت ودرية تختم مرافعتها، عقبت:

- فقط لى رجاء، طالما أصبحت أستطيع السير فسأتناول طعامى معكم على المائدة، فلا تتصورى كيف كنت أشعر بمذاقه فى فمى وأنت تحملينه فى الصينية حتى فراشى.. بعد عودتك مكدودة من عملك.

حتى كان صباح ذلك اليوم، عندما حضرت وهيبة إلى المنزل..بعد أن ذهبت إلى البيت الكبير وأعطاها البواب العنوان، قالت إن شهورا مرت منذ وفاة زوجها دون أن تنتهى إجراءات المعاش..حتى اقتنعت أن شيئا لن يتم إلا إذا سعت وراءه، ولذلك حضرت إلى القاهرة لتتابع بنفسها الإجراءات فى الهيئة، على تصميم بعدم العودة إلى البلد إلا إذا أنهت الموضوع..حتى لو اضطرت للإقامة بالعاصمة شهرا أو أثنين، وتستطرد وهى تربت يد الهانم الكبيرة:

– وطبعا لم أحمل هما للإقامة هنا ومنزلك مفتوح بحسك، لقد ربيتنى اثنتى عشر عاما ولم أخرج من منزلك إلا على بيت العريس، وطيلة هذه الأعوام البعيدة.. وحتى فى الزيارات التى كنت أحضرها بعد زواجى.. لم أشعر إلا وكأن البيت بيتى وأنت أمى.

فى كلمات مقتضبة أفهمت السيدة درية وهيبة أن الهانم الكبيرة تستجم عندها.. وأن عليها أن تبحث عن أقاربها القدامى لتقيم عندهم، ودخلت وهيبة المطبخ لتتناول طعامها وهى مكسورة الخاطر، فى حين اتجهت الهانم الكبيرة إلى غرفتها محاولة النوم، لكن النوم بدا ساعتها مطلبا عزيز المنال.

لم يكن ألمها لإغلاق منزلها فى وجه وهيبة فقط.. لكن غيرها كثيرون، كل ما هنالك أن حضورها يومها هو الذى لفت نظرها إلى

هذا الأمر، ابنها محسن المهندس بالكويت.. أين ينزل هو وزوجته وأولاده عند حضورهم إلى القاهرة لقضاء إجازتهم السنوية؟، وابنتها سعدية المقيمة بالإسكندرية .. من حين لحين تحب المجئ لرؤية أمها وشقيقاتها، وبالطبع تنزل عند أمها ضيفة عزيزة محبوبة، وزوجها الأستاذ بجامعة الثغر.. تعودت جامعة القاهرة انتدابه ليحاضر بها يومين فى الأسبوع، لن تمضى أسابيع إلا وتبدأ الدراسة ويستأنف الدكتور محمود زياراته للقاهرة، فأين عساه يقيم وأسرته كلها بالاسكندرية؟، هل يقيم فى أحد الفنادق ومنزلها موجود؟!، بل وحتى أولادها المقيمون بالقاهرة.. إنهم أغبياء حين يطلبون منها إغلاق منزلها الذى كان مفتوحا بالنسبة لهم بدورهم، ألا يحضر مصطفى أحياناً ليدخل حجرته القديمة ويكتب عندما تستعصى عليه الكتابة وسط الضجيج الذى يحدثه أولاده.. وأيضاً زوجته فى ديالوجاتها مع الشغالة؟، وبناتها.. ألا ترتاح أعصاب الواحدة منهن عندما تختلس لها يوما تقضيه فى البيت الكبير بعيداً عن مشاكل منزلها؟.

إنها لا تقصد حضورهن غاضبات فهى لا تحترم من تترك منزلها غاضبة..رغم ذلك فوجود منزل الأسرة الكبير مفتوحا على مصراعيه أمام أية زوجة له مذاق ربما لا يعرفه الكثيرون، وهى لا تنسى فى بداية زواجها عندما سافر والداها للحج وحدث خلاف بينها وبين زوجها، أيامها أحست بشعور يقترب من الذلة، بعد عودة والديها

حصلت خلافات قاسية.. لكنها لم تترك منزلها، رغم ذلك لم تشعر بالمرارة السابقة، أحست أنها موجودة برغبتها واختيارها.

أيضا أحفادها..أغلبهم يجب أن يحضر إليها في أيام الامتحانات.. توفيرا لوقتهم الثمين لقرب منزلها من جامعتهم، منزلها مفتوح لكل هؤلاء وغيرهم.. جميع أولاد البواب وحراس الجراج يقصدونها طلبا للقطرة والأسبرين ومراهم الحروق، فأجزاخانة حمامها الصغيرة..العامرة بكل هذا تحت أمر أى صاحب مقصد.

تعرف لماذا يلحون فى إقامتها عند أحدهم، يريدون أن يغسلوا أيديهم من همومها، لكنها لا تحملهم شيئا، حتى الإقلال من زيارتها تعذرهم عليه، تعرف مشاغلهم.. والتزاماتهم.. وصعوبة المرور.. وطاحونة الحياة، تعذرهم تماماً.. ويكفيها سؤالهم بالتليفون.

لكنهم هم لا يصدقون هذا، يظنونها غاضبة من تقصيرهم، ويخشون اتهامهم بالعقوق، ضمائرهم هى التى تؤرقهم.. تشعرهم بالذنب، وطبعا لا تستطيع أى من بناتها ترك منزلها لتبيت معها.. فى حين يقولون إنهم لا يريدون بقاءها وحيدة.

ومن قال لهم إنها وحيدة؟، وكل قطعة أثاث فى بيتها تناجيها وتبادلها الحديث!، حديث الذكريات، التى كأنها تعيدها لتعيش أجمل أيام حياتها، لعب أولادها تذكرها بأيام طفولتهم.. وتردد لها بعض نوادرهم، وكم من ابتسامة رفت على شفتيها وهى واقفة أمام هذه

اللعب تزيل عنها غبار الأيام، وذلك المقعد.. كم حدثها عنه.. عن شريك حياتها كيف كان مقعده المفضل، ويذكرها بجلساتهما معا أمام التلفزيون.. وبعض أحاديثه وضحكاته وتعليقاته، ومع حديث الذكريات يخف ضغط يدها على المقعد بفوطة التلميع لتصبح لمسات حانية. وأيضا الغسالة الكهربائية.. آخر هداياه لها قبل رحيله، تحكى لها كيف مسح السوق بحثا عن واحدة فول اتوماتيك.. تحوى أحدث الإضافات، بعد أن سمعها تشكو من آلام ذراعها عندما تدير أحيانا عصارة غسالتها القديمة.. فى حالة خلو المنزل من شغالة.

أولادها وأحفادها يظنون أن أهل زمان كانوا خاملى المشاعر، وربما لم يعرفوا الحب إطلاقا، هراء.. بل هو الحب على أصوله ذلك الذى كان على أيامها، حب الآن حب مصالح، من يمتلك الشقة.. من يسافر فى إعارة.. من تساعد فى المصروف..من يستطيع والدها معاونته فى عمله، إلى غير ذلك، رجل هذه الأيام -والمرأة أيضا- يعمل فى الصباح.. ويروح يلهث وراء عمل آخر فى المساء، حتى ولو كانت لقمة الخبز ميسرة، فهما يريدان الديكورات والفيديو كاسيت، أين إذن يجدان -وسط كل هذه الطموحات- بقية من وقتهما وتفكيرهما يعطيانه للحب؟!.

لم تكد تنتهى من ترتيب حقيبتها حتى فوجئت بابنها وبناتها الثلاث.. جميعا..من غير المعقول أن يكون حضورهم مصادفة.. لاشك أن درية استدعتهم، وقبل أن يفتح أى منهم فمه قالت هى بحزم:

- أعرف كل ما ستقولونه.. أصبح مثل الأسطوانة المشروخة، كما سبق أن قلت لدرية.. عودتى لمنزلى ليست من أجل وهيبة فقط، وانما من أجلكم أيضا..لكن..حتى إذا استغنيتم أنتم جميعاً عن منزلى، ولم يعد محتاجا إليه إلا وهيبة وأمثالها.. فالبيت الكبير لن يغلق أبوابه فى وجوههم أبدا..إلا..إلا عندما تحين الساعة ويسترد الله وديعته.

كادت رأسها تنفجر من كثرة التفكير.. دون أن تصل إلى احتمال معقول، فمن تراه أخذ المجوهرات؟!، سؤال سهل..لكن الإجابة عنه كانت من الصعوبة بمكان، لم يدخل الشقة خلال الأيام الثلاثة التى مرت على تحليها بمجوهراتها آخر مرة سواها والشغالة نفيسة، لكن دادة نفيسة لا يمكن أن تمد يدها أبدا، كانت الأمانة مجسمة، لاترجع بداية عملها لديها إلى عام أو عامين.. أو خمسة أو عشرة.. وإنما هى تعمل فى منزلها منذ خمسة عشر عاماً كاملة، إنها هى التى ربت أولادها جميعا، عاصرت أيام سعادتها حال وجود شريك حياتها.. ثم أيام انهيارها بعد رحيله، شاركتها أفراح تخرج بناتها الثلاث، ثم زواجهن الواحدة بعد الأخرى على التوالى، كل منهن كانت تضع شبكتها فوق الشفونيرة الخاصة بها أياما وشهورا.. ونفيسة تدخل وتخرج.. تكنس وتنظف.. ولا تنقص "قشاية"!.

بل نفس مجوهرات دولت هانم.. صحيح اعتادت دائما أن تضعها فى درج مغلق من دولابها، لكنها فى أحيان عديدة كانت تعيد المجوهرات بعد استعمالها إلى الدرج وتغفل عن إغلاقه، بل أكثر من ذلك.. عدة مرات نسيت حتى إعادتها لدرجها وتركتها حيث خلعتها.. على التواليت، ودخلت نفيسة للتنظيف..فكانت ترفع المجوهرات مع باقى زجاجات وعلب الماكياج.. لتمسح تحتها ثم تعيدها لمكانها، بعد

خروجها تتذكر دولت هانم ما كان من أمر نسيانها.. فتشهق بذعر وتسرع إلى غرفتها.. لتجد مصاغها كله مكانه.. تماما حيث تركته..

بعيدة إذن بكل تأكيد دادة نفيسة عن سرقة المجوهرات ولكن.. من تراه أخذها ؟، وتظل عشر علامات استفهام.. وعشرون علامة تعجب تتراقص أمام تفكيرها دون إجابة!.

طبعا قبل أن تحدث نفيسة في الأمر..بحثت في كل مكان بالغرفة.. بل بالشقة كلها يحتمل –ولو بنسبة واحد في المليون_ أن تكون وضعتها به، رغم تأكدها التام أنها لا تضعها إلا في درجها أو على التواليت، بعد هذا البحث المضنى لم يعد هناك مفر من محادثة دادة نفيسة، هل وجدتها فرأت –من منطلق خوفها عليها– أن تضعها في مكان ما؟ وتنفى نفيسة أنها رأتها على الإطلاق، إذن فهل دخل الشقة أحد أثناء غياب دولت هانم.. سباك..نجار إحدى شغالات الجيران.. مفتش عدادات النور ألخ الخ؟، لكن دادة نفيسة تقطع بأن ذلك لم يحدث قط، وفى السؤال الثالث تزيد دولت هانم من جرعة المرارة إلى كأس نفيسة المسكينة:

– هل تركت مفتاح شقتنا الذى تحتفظين به أمام أحد من جيرانك أو.. أو أسرتك؟

وتبكى نفيسة: أبدا أبدا.. المفتاح دائما فى كيس نقودى الذى أضعه فى صدرى، يبدو أن السؤال التالى سيكون عما إذا كنت أنا نفسى قد أخذت المجوهرات!

وتبادر دولت التى كـانت تبحث عن كلمـات مخففـة مـن حقـل اللغة لطرق هذا الاحتمال الأخير:

- إذا كنـت قـد ضعفـت تحـت ضغـط بعـض الظــروف أو الاحتياجات.. أو وسوس لك الشيطان، فأنا على استعداد أن أنسى كـل شئ إذا أعدت المصوغات، بل وسأرى ماذا يمكننى عملـه لمسـاعدتك فى هذه الاحتياجات.

وتلطم نفيسة خديها وهى تصرخ: أنا؟ أنا يا مدام دولت؟.. بعـد كل هذا العمر؟.. إحضرى لى مصحفا وأنا أقسم لك عليه.

وتحاول دولت أن تطيب خاطرها فتأخذها بين ذراعيهـا لتبكـى معها، بعد أن تهدأ قليلا تحاول دولت هانم تبرير أقوالها:

- أعذرينى يا دادة نفيسة وضعى نفسك مكانى، لا يوجد بالشقة سواى وإياك، بناتى الثلاث جميعهن فـى الخـارج.. وابنـى بـاهر فـى القاهرة، إننى طبعا يمكن أن أتهم نفسى ولا أتهم أيا منهم، لكننى أريـد أن أعطيك حقك وفرصتك فى البراءة كاملة.. فأفند ظروف الجميـع.. حتى أولادى لقد ارتديت بعض هذه المجوهرات فى حفـل زفـاف ابنـة سعاد هانم.. وكان ذلك منذ ثلاثة أيام، فهل تبخرت فى الهواء؟، لاشك يد أخذتها.. فلمن تكون هذه اليد؟.

ولا تجد نفيسة أمامها سوى أن ترفع يديها إلى السماء:

- الله وحده يعلم من .. كما أنه هو وحده الذى يعلم براءتى.

– إذن فسامحينى عندما أبلــغ الأمر للبوليس، مضطـرة لذلـك، فللمجوهرات أهمية كبرى لدى، وسأقول لهم كل شئ، سأقول إننــى أثق فى أمانتك وأستبعد أن تكونــى أنـت السـارقة، لكننــى سـأقول لهـم أيضا إنه لم يوجد فى الشقة سواك.

فعلا كانت للمجوهرات أهميـة بالغـة لـدى دولـت هـانم، حيث أصبحت آخر ما تمتلكه أو "تحتكم" عليــه.. بعد أن مضـى بهـا العمـر ولم تبق إلا فلوله، عندما لم تعـد العقـارات تـدر عـائدا معقـولاً باعتهـا جميعا.. وكذلك الأسهم والسندات، ثم وضعت النقود.. أو على الأصح ما تبقى منها بعد جهاز البنات الثلاث.. فى شهادات الاستثمار، وكــان عائد هذه الشهادات مع معاشها عن زوجها المستشار الراحل يكفيانهـا لتعيش حياة متيسرة، رغم مـا تتكلفـه مـن مصروفـات لـدروس بـاهر الخصوصية... التى طالت وطالت، حيث يبـدو أن بـاهر كـان مؤمنـا بحكمـة"فـى التـأنى السـلامة وفـى العجلـة الندامـة"، فـراح يـأخذ سـنته الدراسية بكلية الهندسة فى سنتين أو كمـا يقولـون ينجـح علـى سـطر ويترك السطر التالى!، ثم تخرج أخيرا لتظن أنها ودعت متاعبها إلـى الأبد، فلا شك أن عديدا مـن الشـركات سـوف تتنـافس وتتصـارع فـى سبيل أن تضم إحداها باهرا إلى صفـوف العـاملين بهـا، ولحسـن حـظ هذه الشركات –وليس لحسن حظ باهر– أن هذا الأخير كان معافا من التجنيد بسبب أنه كان وحيد والدته، وإذن فلن يضيع عليهـم هـذا العـام الثمين من عمره!.

لكن الأيام والأسابيع تمر لتكمل الشهور.. والأخيرة بدورها تتوالى لتكمل الأعوام.. دون أن يلوح في الأفق عمل يتفق وتخصص باهر، وتحدث دولت هانم كل من تعرفهم..لكن هذه الأحاديث لا تسفر عن عمل لباهر، وكل ما تمخضت عنه زيادة في معلومات الوالدة العزيزة عن الأزمة الكبيرة في سوق العمل، وأن البطالة تشمل عشرات الألوف من خريجي أغلب الكليات صحيح أن عددا من هؤلاء قد تصرف.. فعمل بعضهم في أعمال يدوية أو في بعض الكافتريات أو مندوبين للمبيعات أو أو، لكن باهر بتركيبته الخاصة.. لم يكن من هؤلاء الذين يستطيعون التأقلم مع متغيرات البلد، هو مهندس عمارة.. ولن يعمل إلا في تخصصه.

عندما اكتمل العام الثاني على تخرجه.. أو بالأحرى على تعطله.. فكر في الهجرة إلى كندا، كما فعل زميلان له، وإلا .. فكيف عساه يستطيع الزواج؟، صحيح أن مشكلة الشقة محلولة حيث سيقيم طبعاً مع أمه بشقتها الكائنة بأرقى أحياء الإسكندرية، وأيضا الشبكة.. وعدته الأم أن تقدم له أجمل قطعة في مصاغها الثمين.. لكن من أين له أن ينفق على العروس؟، من المصروف الذي تعطيه له الوالدة؟!، إنه بالكاد يكفي سجائره وبنزين سيارته.

عند فكرة الهجرة هذه ينخلع قلب الأم فتكثف من محاولاتها لإيجاد عمل له في مصر... عبثا، وأمام شبح صقيع الوحدة الذي يهدد عروقها بالتجمد.. يتشعب تفكيرها في كل اتجاه، لتصل أخيرا إلى

حل، مبلغ الستين ألفا.. المودعة في شهادات الإستثمار .. يمكن أن يأتى بضعف عائده لو وضع فى إحدى شركات توظيف الأموال، هذا الفارق الذى يزيد على الخمسمائة جنيه شهرياً.. يأخذه باهر إلى جانب مصروفه فيصبح مبلغاً يزيد عن راتب أى مهندس فى اية شركة .. مما يسيل له لعاب أجمل عروس، ويمكنه أن يقول للأنسباء أنه يعمل فى بعض المقاولات لحسابه، باهر يرحب بالعرض ليتم التنفيذ فى اسابيع.

وتمر شهور .. تنهمر فيها الأرباح على باهر من الشركة المعجزة التى تحقق كل هذا العائد العظيم، فيطمئن باله ويبدأ يفكر فى العروس التى تستحقه.. بكل مميزاته، مال ووسامة.. شباب وعلم.. أخلاق وأصل طيب الخ الخ، لكن قبل البت فى اسم عروس بعينها ـ وحمدا لله أن وقع ذلك قبل الارتباط ـ تقع الكارثة، الشركة التى وضعت فيها دولت هانم كل ما تملك كانت وهمية.. أقامها بعض الأفاقين للإحتيال على المودعين الذين وثقوا بهم وسلموهم أموالهم.. فإذا بهم يهربون أغلب هذه الأموال إلى الخارج، وتدخلت الحكومة بتشكيل بعض اللجان من محاسبين ومراجعين.. لتلتهم مكافآت كل هؤلاء معظم ما تبقى من أموال الشركة فى مصر!!.

المودعون بالألوف .. أو مئات الألوف استيقظوا من أحلامهم ليكتشفوا أنهم كانوا نائمين على صدر الأحزان، فلكل منهم قصة تمثل فاجعة بكل المقاييس، دولت هانم وابنها باهر .. أصبح عليهما أن

يعيشا فقط على معاش الأم الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، أغرب شئ أن بعض الصحفيين من أصحاب الأعمدة اليومية لم يتركوا المودعين فى حالهم فكتبوا يرجعون ما حدث لطمعهم!، أى طمع هذا الذى يتحدثون عنه؟، ألم تضطرهم ظروفهم إلى ذلك.. حتى جعلتهم يندفعون إلى تلك الشركات كما يندفع الحديد الممغنط؟، وأية ظروف؟، غلاء فاحش يلتهم مواردهم الضئيلة .. إلى جانب تعطل أولادهم الذين أنفقوا على تعليمهم دماء قلوبهم، فهل إذا حاول إنسان أن يرسم الشمس فوق عتمة الليل .. إذا حاول إنسان حاصرته النيران الفرار بإلقاء نفسه إلى أى مكان بعيداً عن جحيمها.. يلام على ذلك؟!، إن نفس هؤلاء الصحفيين اللائمين هم الذين ينشرون الإحصائيات عن المتعطلين من حاملى الشهادات الجامعية والمتوسطة .. وكيف أنهم بلغوا عدة مئات من الآلاف!.

المهم.. من جديد عادت فكرة الهجرة تلح على عقل باهر، بل كان ذلك بصورة أشد بعد تقلص دخلهم، وعندها لم يعد فى وسع الأم أن تثنيه مهما كانت مشاعرها أو أحزانها.. التى تؤكد لها أن سفره سوف يخفت نبض الفرحة فى قلب الكون.. سوف يجعل وجه العيد شاحباً.. ويجعل ورود الحياة بلا عطر.. بحر الحياة بلا ماء.. ثوب الحياة يفقد لونه الزاهى.. مذاق كل شئ فى الوجود يضيع.

بدأ يستخرج اوراقه.. عندما اكتمل له ذلك قطع التذكرة إلى بلد المهجر، السفر طبعا من مطار القاهرة.. لكن دولت هانم تسلم عليه

عند باب الشقة، رفضت أن تسافر معه إلى القاهرة.. أو حتى تستقل معه التاكسى إلى المحطة، لا تستطيع تحمل لحظات الوداع، أغلقت عليها غرفتها مع عذاباتها.. بعد أن أكدت عليه أن يحدثها فور وصوله إلى كندا، فى المساء كان التليفون يرن الجرس الترنك.. أسرعت إليه وهى دهشة.. هل وصل سريعاً؟، المكالمة كانت من القاهرة.. باهر بنفسه.. يتحدث فى سخط وغضب، فى المطار منع سفره لورقة معينة تنقص أوراقه، طبعا سيظل فى القاهرة من أجل استخراج هذه الورقة، وكل أمله أن يتم ذلك فى خلال الأيام القادمة.. قبل موعد الطائرة التالية.. بعد أسبوع، لذلك يقترح عليها أن تحضر إلى القاهرة لتقيم معه ذلك الأسبوع، لكنها تعتذر.. بعد يومين حفل زفاف منال ابنة قريبتها سعاد هانم، عدا أنها تحس بصحتها على غير ما يرام هذه الأيام، فيسألها بقلق:

ـ كيف ذلك.. ماذا بك بالضبط؟

وترد : لا شئ .. مجرد برد بسيط.

لم تقل له إن ما بها هو غيابه عنها، لم تمر أيام على سفره.. مع ذلك كلما سارت فى الطريق راحت عيناها تتجولان فوق الوجوه.. وكأنها تبحث عنه، ويعود الأمل يداعبها.. من يدرى ربما خلال هذا الأسبوع يغير تفكيره وينبذ فكرة الهجرة، لكنها كانت تأمل فى سراب، ظلت تحادثه عدة مرات فى اليوم وهو فى كل مكالمة

يبدو أكثر تصميماً على السفر، حتى كانت مكالمته مساء أمس.. ذكر لها فى كلمات كأنما توشك أن تقفز من سماعة التليفون لفرط سعادتها .. إنه انتهى من استخراج الورقة وسوف يسافر بعد يوم واحد.

من أجل ذلك كله كان لهذه المجوهرات كل تلك الأهمية لديها.. أهم من حياتها نفسها، بعد وفاة الزوج وسفر البنات والابن جميعاً .. لا يصبح للمرأة ما تركن ظهرها إليه سوى المال، والمال ذهب أغلبه مع الشركة الناهبة أو المنهوبة، حتى لم يعد لها سوى هذه المجوهرات.. تواجه بها ظروف أيام مقبلة.. لا يعلم عنها أحد ــ من بعد الله ـ شيئا، ظروف صحية أو مادية تلم بها أو بأحد أولادها فى الغربة.. فهل تضيع هى الأخرى؟، لم تملك أن راحت تبكى، هكذا المصائب.. لاتأتى فرادى!.

وجاء رجال البوليس.. ليفتشوا كل ركن فى الشقة، وليمطروا نفيسة بوابل من الأسئلة حول كل صغيرة وكبيرة.. وما هو هام وتافه من الأمور المحيطة بالحادث، ثم أخيرا أفرجوا عنها بكفالة..دفعتها عنها دولت هانم!.

عندما طلبها باهر فى المساء احتارت..هل تقول له عن حادث السرقة أم لا؟، ودت لو تقول له ..ربماألغى سفره وجاء إليها ليكون بجانبها فى هذه المحنة، لكن ماذا لو ظل مصمما على السفر؟، إنه إذن يسافر وهو متألم لنكبة أمه، انتهت إلى أن كتمت الأمر عنه، ثم

جاءت مكالمة الصباح الأخيرة قبل السفر، ودعته ودعت لـه. وأكدت عليه أن يحدثها بعد وصوله أرض المهجر.

بعد قليل جـاءت نفيسـة بعينيـن متورمتيـن..تشـيان بأنهـا ظلـت تبكى طوال الليل، وفى أثرها جاء رجال البوليـس.. وعـاودا تفتيشـهم وأسئلتهم مع الهانم والدادة.. التى كانت كل منهما على وشـك السـقوط أرضـا، فكلتاهما تحملت فوق طاقة البشر، وبعد المغرب يدق التليفـون دقة الترنك، ومثل الأسبوع السابق تسرع إليـه دولـت هـانم وهـى فـى دهشـة.. هل استطاع أن يصل بهذه السـرعة إلـى كنـدا؟، لكنهـا كـانت مثل المرة السابقة أيضـا.. من القاهرة، ضـابط بوليـس يخبرهـا أنـه قد قبض على باهر فى المطار وهو يهرب مجوهرات تقترب قيمتها مـن المائة ألف جنيه، وهـو يدعـى أنهـا تخـص أمـه.. لذلـك يطلبـون منهـا السفر إلى القاهرة للتعرف عليها!، فـى وقـت واحـد تصـرخ المرأتـان المسنتان، دولت هانم وهى تخبط رأسها بكلتا يديها :

– باهر؟! ابنى ؟! وحيدى؟!..حبيبى؟!..

فى حين ترفع نفيسة يديها إلى السماء:

– أشـكرك يـا رب..كنـت أعـرف .. كنـت أعـرف أنـك لابـد ستظهر الحق.

فى المواجهة التى رتبها البوليس تـأوهت دولـت هـانم بصـوت مختنق:

- مازلت عاجزة عن التصديق، أنت يا باهر؟! لكن كيف؟.

قال باهر ووجهه إلى الأرض: فـي يـوم السـبت..الـذى أعـرف أنه موعد اللقاء الأسبوعى للجمعية الخيرية التى ترأسينها.. جئت إلـى الإسكندرية عقب مكالمتى الصباحية معك، ثم انتظـرت حتـى خرجـت دادة نفيسـة لشـراء لـوازم البيـت.. ودخلـت الشـقة مسـتعملا مفتـاحى الخـاص الـذى لا أزال محتفظـا بـه، وبمفـك صغـير فتحـت درج شيفونيرتك العتيقة، بعد أخذ المجوهرات عدت إلـى القـاهرة..لأحدثك بعد الظهر وكأن شيئا لم يحدث!

بـدأت دموعهـا تسـيل: لكنـك أبـدا لـم تكـن فـى يـوم مـن الأيـام منحرفا.

هتف: ولن أكون، لكننى أقنعت نفسى بعدة أمـور.. أولهـا أننـى مسافر إلى بلد غريـب لا أعـرف إن كنـت سـأجد بـه عمـلاً.. ومتـى، وطبعاً لو أننى طلبت منك المجوهرات فـإنك لـم تكونـى قـط لتوافقـى، أيضا أقنعت نفسى بأنه فى الديـن نفسـه يقولـون إن الضـرورات تبيـح المحظورات، عدا أننى لم أظلم شقيقاتى.. فإن ثمن شقتك وما بها من ريـاش يسـاوى أضعـاف ثمـن المجوهـرات، طبعـا أنـا لـم أعتقـد أنـك ستفتحين علبة المجوهرات خلال ذينك اليومين.. ما بيـن حفـل زفـاف منال وسفرى، لذلك كنت أعتزم أن أخبرك بالأمر كله تلفونيـا بمجـرد وصولى كندا.. حتى لا تضار دادة نفيسة التى ربتنى..آه.. لشد ما أنـا آسف يا دادة نفيسة!.

الدنيا تغيرت، تبدلت، تطورت، لم يعد صاحب الشجرة يجلس تحتها منتظراً أن تسقط ثمارها فى حجره، إنه الآن يتسلقها حتى أبعد فرع فيها ليحصل على الثمار، بل حتى الفتاة.. أية فتاة، لم تعد تجلس فى منزلها انتظارا للفارس الذى يدق الباب، أصبحت تختلط بالشباب، وربما اختارت هى من يروقها.. حتى تمهد له أن يتقدم إليها، فهل يكون أشرف أقل من هؤلاء وأولئك وهو المهندس الطموح الممتلئ حماساً؟!، غير معقول بالطبع، لن يحدث.. ولن يقبل لنفسه أبدا.. أن يجلس تحت الشجرة!.

حمد الله كثيرا أن التحق بقسم المبيعات بهذه الشركة الكبرى لإنتاج أجهزة التكييف.. بعد شهور قليلة من تخرجه، لكن.. ما هذا الكساد الذى أصاب السوق؟.

يظل طوال الشهر يتردد على مديرى الشركات وكبار الموظفين والتجار.. ليكرر أمام كل منهم محاضرته المعهودة عن أهمية جهاز التكييف لإراحة أعصاب العملاء والموظفين.. مما ينعكس بالطبع على رفع انتاجية الشركة.. وميزات أجهزة شركته التى لا تقارن بها اية أجهزة أخرى.. وأسعارها وصيانتها الخ الخ،مع كل هذا العناء،، يجد أنه آخر الشهر لم يسّوق أكثر من بضعة أجهزة!.

بعد عامين رأى أنه إذا استمر على ذلك المنوال فإنه لن يتزوج خطيبته حبيبة قلبه أميرة.. إلا بعد أن يحال إلى المعاش، لا .. يجب أن يطور من طريقته، وأن يبحث عن خبطات كبيرة.. أو حتى خبطة واحدة يخرج منها بعائد محترم يحل له أزمته، من ثم راح يفكر ويفكر.

استمر يفكر حتى قرأ ذات يوم خبرا جعله يحلق في سماء الأحلام، شركة مشتركة من بعض رجال الأعمال المصريين.. ونظرائهم من الهولنديين قد اشترت فندقا صغيرا بمدينة الغردقة، وهى تزمع أن تبنى من حوله قرية سياحية خمسة نجوم تحوى خمسمائة غرفة وشاليها، هتف فى دخيلته"يا الهى، خمسمائة غرفة؟، وبالطبع مستوى الخمس نجوم يشترط وجود جهاز تكييف فى كل غرفة، أى خمسمائة جهاز، سيأخذونها من إحدى الشركات.. فلماذا لا تكون الشركة هى شركتنا؟، وسيتم البيع بواسطة أحد المندوبين.. فلماذا لا يكون هذا المندوب هو أنا؟، يا لها من صفقة عظيمة.. إنها الصفقة التى تستحق السعى والتعب بجد، فطبعا مدير هذا المشروع لن يضرب الرمل حتى يعرف أنه توجد بمصر شركة تنتج أجهزة ممتازة - شركتنا -، وأن بهذه الشركة مندوباً نشيطا يدعى المهندس أشرف.. يستحسن أن يتم الاتفاق عن طريقه، وإذن.. فكيف السبيل إلى إعلامه بكل هذه المعلومات البالغة الأهمية؟".

فى اليوم التالى كان أشرف ينزل من الطائرة فى مطار الغردقة، ومنه يتجه رأسا إلى الفندق الصغير إياه ويحجز غرفة به، أمام البحر ينبهر.. حتى راح يتلفت وكأنه يشرب بعينيه من جمال البانوراما الممتدة أمامه، ثم مع باقى النزلاء استقل الغواصة فى اليوم التالى.. لتغوص بهم وسط الأسماك الملونة والشعاب المرجانية بتشكيلاتها الرائعة وألوانها البديعة.. كأنها حديقة أسطورية ساحرة، حتى لم يملك أن يتمتم :

- سبحان الله . كل هذا الجمال فيك يا مصر؟، لا عجب أن يأتيك السياح من جميع أنحاء العالم.

فى صباح اليوم الثالث تنبه لموقفه، إنه لو انساق للاستمتاع بالجمال حوله لنسى نفسه، لا .. هو لم يحضر من أجل المتعة أو الاسترخاء.. وإنما قد حضر فى مهمة عليا سامية، وبعدها.. أمامه الوقت، وأيضا الجمال الذى هو موجود أبدا ولن يطير، فيستطيع عندئذ أن يستجم قدر ما يشاء .. حتى يكتفى.

وبدأ عملية جس النبض، سأل عن مدير المشتريات للقرية السياحية ورد رجل الاستقبال:

- إنها مس مارلين، تلك التى كانت تتحدث معى وانصرفت فى اللحظة نفسها التى حضرت فيها سيادتك.

شـهق: هـذه الفاتنـة التـى تسـير وسـط مهرجـان مـن الحسـن والجمال؟!.

ضحك الموظف : اعتقدت فعلا أنك ربما رأيتها.

رآها؟، وهل يعقل ألا يكون قد رآهـا؟، مـاذا .. أأعمـى هـو؟، عموما هو فعلا لم يرها.. الأصح أنها قد خطفت بصره خطفا بقوامها الممشـوق.. وخصـلات شـعرها الأشـقر ينسـكب علـى جـانبى وجههـا بـدلال.. وبشـرتها التـى تحـاكى لـون الضـوء الـذى تحـاصره سـتائر وردية؟.

عـاد إلـى حجرتـه.. ليظـل يزرعهـا جيئـة وذهابـا، وقـد راحت الأفكـار تتصـادم فـى رأسـه، نعـم.. لابـد أن يعيـد التفكـير فـى خطتـه، كـان قد سمع لنفسـه أكثر مـن مـرة.. الأسـطوانة التـى عـزم أن يعزفهـا علـى أسـماع مديـر المشـتريات عـن أجهزتـه العظيمـة، لكـن هـذه المديـرة لا شـك تحتـاج تكتيكـا آخـر، وجـد نفسـه لا شـعوريا يتجـه إلـى المرآة.. ليقف طويـلا يتـأمل صورتـه فيهـا، قـوام مديـد رشـيق.. سـمرة جذابـة زادتهـا الشـمس التـى لوحتهـا بـالأمس جاذبيـة.. شـعر أسـود مجعد، كـان دائمـا منـذ بدايـة صبـاه يتبرم بـه وبعذابـه فـى تمشيطه.. وينعـى علـى أبيـه أنـه قـد ضـاقت بـه الدنيـا فلـم يجـد سـوى هـذه السـمراء ذات الشـعر المجعـد ـ أمـه ـ ليتزوجهـا.. فينجبـه هكذا مثلهـا، ثـم يثنـى بـأن ينعـى حظـه

الخـاص.. حيـث شـقيقه لنفـس الأم ورث بشـرة أبيـه البيضـاء وشعره الكستنائى الناعم، يا للعجب.. لأول مرة فى حياته لا يسخط على بشرته وشعره.. وإنما يحس بالارتياح لهما، حيث قرأ كثيرا عن اعجاب ـ بل انبهار ـ الفتيات الأوربيات بهذا "التيب" الشرقى المثير، ولكن .. ما شأن شعره وتقاطيعه وقوامه بالمهمة التى جاء من أجلها؟ و.. وبمديرة المشتريات؟، هز كتفيه .. وما العجيب؟، تحت خيمة المال والأعمال كل شئ مباح، ألم يقل ماكيافيلى ـ طيب الله ثراه: إن الغاية تبرر الوسيلة؟ ثم إنه عندما يقترب من مس مارلين.. بل أن يستميلها إليه.. لن يكون ذلك افتعالا مائة فى المائة، فهو فعلا قد أعجب بها إلى حد كبير، أمسك صورة خطيبته وراح يناجيها معتذرا:

- بعد إذنك يا أميرة، ليست خيانة لك.. إطلاقا، على العكس تماما.. إنها مهمة كل ما سوف أبذله فيها من جهد ومن معاناة إنما من أجلك أنت.. ومن أجل أن يجمعنا عش .. قبل أن يتسرب العمر.

للحال بدأت ساعة الصفر لتنفذ الخطة.. التى توخى فيها أن تكون على مهل شديد. وبحذر أشد، حتى تنضج على نار هادئة.. من أجل أن يحصل على أشهى نتيجة، مسترشدابيت الشعر الشهير "نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء"، عرف مكان مائدتها المفضلة حين تتناول طعام الغداء.. فاحتل المائدة المجاورة مبكراً قبل حضورها،

ليبدأ الخطوة الأولى .. النظرة، أو للدقـة النظـرات .. المسـتطلعة أولا .. ثم المليئة بالإعجاب بعد ذلك، نظرات ترسل وتستقبل.

لكن أشرف بعد يومين فقط وجد أنه باستطاعته اختصار بعض الخطـوات.. أو قفزهـا مثنـى مثنـى، وذلـك بعـد تجـاوب مـس مـارلين السريع، وكأنها كانت تنتظر بدء الهجوم لترفع راية التسـليم!، مـارلين وقعت فعلا فى سحر هذا الفرعون الأسمر الجذاب، من ثم وصلا إلـى بند اللقاء، قال فى نفسه ساخراً :

ـ لذلك نجد الغرب يتفوق علينا .. إنهم لا يضيعون وقتا!!.

وما أجمل اللقاءات وسط هذه الطبيعة الخلابة، كانا طائرين بلا قفص.. حبيبين بلا حاسد.. صديقين بـلا ثـالث، شـئ واحـد فقـط كـان يقلقه.. هذا الحب مكتوب عليه أن يتلاشـى سـريعا.. كمـا الحلـم الـذى ينسى عقب الاستيقاظ، فماذا لو تصورت مارين أن نهاية هذه العلاقـة لابـد وحتمـا أن تكـون بـالزواج؟، لكنــه اسـتطاع أن يلقــى كـل تلـك الوساوس خلف ظهره.. ومن ثم يمضى قدما فى تنفيذ خطته، بالتـأكيد هو لن يعدم حيلة يتملص بها بعد أن يحقق هدفه، حيث مـا زال عقلـه هو سيد الموقف.

فى ثالث لقاء جلسا أمام البحر.. تحـت قـرص الشـمس الذهبيـة الذى راح يبتعد رويدا على وعد بلقاء جديد، كان قد قـرر أن يفاتحهـا فى ذلك اليوم بأمر عمله.. وكأن الأمر جاء مصـادفـة، لكنـه لمـح فـى

عينيها الضاحكتين أبدا كأنهما أرجوحتان من نغم..لمح آثار كدر كبير، قالت بأسف شديد إن المجموعة التى كلفت بدراسة الجدوى قدمت نصيحتها بتأجيل مشروع القرية السياحية فترة من الوقت، متأثرين بحالة طارئة من الكساد ألمت بالفندق.. حتى أن نسبة الإشغال وصلت إلى أدنى درجة لها، وسألته بلهفة عما إذا كان من موقعه فى العمل يستطيع أن يقنع عددا من زملائه بقضاء إجازة نصف العام الدراسية القادمة لديهم؟.

بسرعة شغل الكمبيوتر الذى ركبه داخل رأسه، إنه لو استطاع أن يقدم لها هذه الخدمة فسيكون لديه الجرأة أن يطلب منها خدمة مقابلة، ففى هذا الوسط -وسط رجال ونساء الأعمال- لا يكون هناك أهمية كبيرة للعواطف.. مهما كانت درجة سخونتها، وإنما الأولوية "للبزنس" وتبادل المصالح.

فى اليوم التالى كان على الطائرة المتجهة إلى القاهرة. جلس فى كافتيريا الشركة وبدأ عملية الدعاية المكثفة للمدينة الساحرة والفندق المريح والمناظر الخلابة والخدمة الممتازة والخ الخ، وطبعا كل ذلك مزود بالنشرات المصورة التى أخذها من مارلين، ومن شركته إلى شركات أخرى له فيها بعض الأقارب أو الأصدقاء.. إلى نقابته بل وبعض النقابات الأخرى، إلى جيرانه فى السكن ومعارفه وغيرهم وغيرهم، الغريب أن نجاحه فى هذه المهمة فاق كل توقعاته.. بل حتى

أحلامه، لدرجة أنــه دهـش.. أيحقـق فـى خدمـة تطوعيـة عـابرة نتيجـة تتفـوق اضعافـا علـى عملـه الأصلـى فـى تسـويق أجهـزة التكييـف؟، فهـل يدفعـه ذلـك لأن يـترك الأجهـزة إلـى السـياحة؟، لكـن مهـلا -قـال لنفسـه- بعـد تحقيـق الصفقـة مـع القريـة السـياحية سيصبح الحـال غير الحـال.

عـاد أشـرف إلـى الغردقـة لتسـتقبله مـارلين اسـتقبال الأبطـال، بعـد النجـاح العظيـم الـذى حققـه فـى جلـب النـزلاء.. لدرجـة أن فكـرة إرجـاء المشـروع قد استبعدت تماماً، بـل اتخـذت بعض الخطـوات فعـلا فـى سـبيل بـدء العمـل بالقريـة، وهنـا وجـد أن الوقـت قـد حـان ليحدثهـا عـن أجهزتـه الممتـازة المتمـيزة.. مقترحـا عليهـا -وكـأن الموضـوع جـاء وحـى السـاعة- أن تستورد القريـة احتياجاتهـا مـن أجهـزة التكييـف مـن شـركته.. لـترد عليه مـارلين بمنتهـى البسـاطة التـى فـى الدنيـا:

- بالتأكيد كان سيسرنى هذا، ليس فقط لأن أجهزتكم ممتازة كما تقول.. ولكن لأن فى ذلك فائدة خاصة لك، وأنا -من كـل قلبـى- كنت أود أن أقدم لك تلك الخدمة، لكن الحقيقة أن زوجى يعمل وكيلا لإحدى شركات الأجهزة الكهربائية فى بلدنا..هولندا، ولذلك فإننى -بـالطبع- قد أوصيت بـأن تحصـل القريـة السـياحية علـى الأجهـزة الخمسمائة التى تحتاج إليها..بواسطته.

صرخة ملتاعة شقت سكون المساء.. رفعت شاهيناز رأسها عن كتابها بدهشة.. كان مؤكدا أن الصرخة للأستاذ جبر، هل هذا معقول؟.. يصرخ بذلك الصوت المدوى وهو الذى استنكر منها صرختها الخافتة منذ أيام لم تكمل الأسبوع الواحد؟

القياس مع الفارق..هى صغيرة السن.. لم تكمل العشرين بعد..وهو.. فوق الخمسين قطعاً.. عدا انتمائها للجنس اللطيف.. الذى لا يفترض فيه رباطة الجأش وقوة التحمل، لذلك كان لها عذرها فى ذلك الرعب عند مشاهدتها لصورة الفأر على شاشة التليفزيون.. خاصة وان المصور -أو ربما المخرج- لا تدرى بالضبط- أظهر صورته مكبرة أضعافاً حتى بدا بحركة شواربه تلك.. فى صورة مرعبة حقاً، جانب التوفيق مخرج الحلقة ولا شك... التى كانت تتصدى لظاهرة تكاثر نوع من الفئران ـ أسموه الفأر النرويجى القذر.. كأنما توجد فئران ليست قذرة ـ فى حقول إحدى محافظات الوجه البحرى، فهل كان لابد أن يظهر الفأر على الشاشة.. وبهذا الحجم.. فيرعب المشاهدين.. من أجل أن يعرض المشكلة؟..

أو ربما كان المخرج مظلوماً.. ولم تكن اللقطة بالبشاعة التى رأتها هى.. بدليل أن أخويها الصغيرين لم يصبهما الذعر وبالتالى لم يصرخا، أجل.. من المؤكد أن زيادة تأثرها هى لدرجة الرعب كان بسبب ذلك الحادث الذى عقّدها منذ الصغر..

وقتها كانت فى بداية الدراسة الابتدائية.. عندما أغراهـا منظـر مدرسة التاريخ النائمة على كرسيها.. بأحد أعمال الشقاوة الصغيرة، اقتربت من أذنيها من الخلف وأطلقت من فمها أزيزا يشبه صوت النحلة.. وتنتفض المدرسة من الذعر فتفقد توازنها وتسقط على الأرض، طبعاً زاد من جنونها ضحكات السخرية التى انطلقت من جميع التلاميذ والتلميذات.. فأقسمت انها لن تقبل ترضية اقل من عقاب هذه البنت المنفلتة عقابا رادعاً، ورفضت أن تقبل فى ذلك الأمر أى شفاعة أو رجاء.. بتوقيع عقاب آخر غير حجرة الفئران، تلك الحجرة الصغيرة المظلمة بأقصى فناء المدرسة.. كان مجرد التهديد بالحبس فى هذه الغرفة.. كفيل بكبح جماح جميع التلاميذ.. أو الشياطين الصغار على حد تعبير السيدة الوقور وكيلة المدرسة، طبعا نظم التربية الحديثة تدين هذه الوسيلة.. لكن الوكيلة والحق يقال كانت تعمل بالمثل الذى يقول "هوش بعصا السلطان ولا تضرب بها" لذلك كانت شاهيناز أول طفلة تساق إلى هذه الغرفة بالفعل.. وذلك بعد أن دهنت مدرسة التاريخ المهانة يديها ووجنتيها بالعسل.. حتى يجتذب ذلك الفئران إلى قضم تلك الاماكن بشهية أكبر. بديهى أن الحجرة لم يكن بها فئران ولا حتى صراصير.. لكن مجرد التوقع والتخيل دمرا أعصاب الطفلة.. إلى درجة عودتها لمنزلها فى ذلك اليوم فى حالة انهيار كامل.. لتظل بعدها فى الفراش أسبوعاً محمومة تهذى، كاد الأب يجن. ولم يسكت. ذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى حيث أقام الدنيا وأقعدها، لكن شاهيناز ـ أو شاهى كما كان يدللها والداها ـ ظلت

حتى ذلك الحين تنتفض لمجرد ذكر اسم الفئران أمامها.. فكيف بتلك الصورة المكبرة على شاشة التليفزيون؟، لم تملك يومها أن أطلقت تلك الصرخة الخافتة وما أسرع ما أقبلت والدتها والأستاذ جبر ليستطلعا سبب الصراخ..

لو أنه كان والدها الذى حضر .. أكان ينطلق بالسب والسخط .. أم كان يحتضنها ويروح يقبلها ويربت جسمها فى محاولة لهدهدة خوفها؟، لكن هل يمكن أن ننتظر من زوج أمها أن يفعل ما كان حرياً أن يفعله أبوها؟ غير معقول طبعا.. على العكس تماما.. راح يزجرها ويصيح فى أمها:

- أيعجبك هذا.. لقد تخلخلت مفاصلى رعبا وخوفا أن يكون تامر أو سمير أصابه سوء.. عبث فى فيشة كهرباء مثلا أو تعلق بإحدى النوافذ.. أو أو...

حتى الأم.. تركت فتاتها المرعوبة وانهمكت فى تهدئة زوجها وتطييب خاطره.. لفترة طويلة فعلت.. هتفت.

- سأعمل لك كوبا من عصير الليمون أفضل شئ لترويق الدم رد وكأنه يتنازل بقبول عرضها:

- لا مانع .. وبالمرة أعملى كوبين لتامر وسمير.. حيث لا شك أن صرخة الست الهانم بجوارهما قد أرعبتهما بدورهما.

أغرب ما فى الأمر أن الأم لم تصنع فعلا سوى ثلاثة أكواب من الليمون..لزوجها وولديها منه.. هذان اللذان كانا يصخبان

بالضحات وهما يتابعان مسلسلا كوميديا بدأ التليفزيون يبثه بعد انتهاء تحقيق الفئران اللعين، وكأن المياه قد انقطعت من كافة صنابير المنزل بعد ملء هذه الاكواب الثلاثة.. فلم تسمح بأن تتسرب منها ولو بعض النقاط التى يمكن أن تصنع كوبا رابعا لشاهيناز.. وهى التى كانت بالفعل أكثر الجميع احتياجاً له.

وإذا كانت المياه قد انقطعت عن الصنابير.. فانها راحت تتدفق من عينيها.. علام كانت تبكى بالضبط؟.. هل على رحيل والدها المبكر الذى حرمها من عطفه وحنانه؟ .. هل بسبب زواج أمها من الأستاذ جبر الذى كانت تعمل لغضبه ورضاه ألف حساب والذى نتج عنه حرمانها من حنان الام ايضا؟، هل بسبب نقودها التى سرقت والتى ترتب على سرقتها تأجيل زواجها من ابن عمها وليد؟، ليست تدرى على وجه التحديد.. ربما لكل هذه الاسباب مجتمعة.

تحب ابن عمها طبعاً لكن هذا الحب لم يكن المسئول الوحيد عن حزنها الشديد لتأجيل الزواج مدة عامين وربما اكثر.. فهذا التأجيل يعنى مدا لفترة الاشغال الشاقة المحكوم عليها بها.. فترة معيشتها مع الاستاذ جبر و "زوجته" ولديه.. حتى تبلغ الواحدة والعشرين.. سن الرشد.. فتستطيع عندئذ ان تسحب من ارثها بضعة آلاف أخرى من الجنيهات لتكملة جهازها بدلا من الثلاثة آلاف التى ضاعت، حيث رفض وكيل النيابة الحسبية أن يوافق على صرف مبلغ بديل.. سأل الوصية -الأم- بلهجة متهكمة :

– كيف فقدت هذه النقود..هه؟، أعتقد أنك قد تزوجت من شخص آخر بعد وفاة والد شاهيناز.. وأيضا أنجبت منه ولدين.

غضبت حسنية هانم من كلمات وكيل النيابة التى بدت كما لو كانت تتهمها بالاستحواذ على نقود القاصر فصاحت:

– قلت لك إنها سرقت.. وقد عملنا محضرا بالقسم عن حادث السرقة.. وهاك رقم المحضر..

رد الوكيل بصرامة : اسمعى.. لو سلمنا جدلا بسرقة النقود فهى كما تقولين كانت فى دولابك.. واذن فأنت المسئولة عن ضياعها.. وواجبك ان تدفعى من مالك الخاص مبلغا يساوى المبلغ المختفى لتجهزى به ابنتك.. لكنى لن أوافق على صرف مليم واحد من مال القاصر بعد اليوم..

طبعا اعتذرت حسنية هانم لابنتها بخلو يدها من أى مبلغ لتعويض المبلغ المسروق، وليد بدوره –وأسفه للتأجيل لا يقل عن أسفها– قال نفس الكلام :

– ليت معى يا شاهى ما أسد به النقص فى الجهاز.. أقسم لم أكن لأتاخر.. فليس حتما التقسيم الذى جرى به العرف فى تحمل التزامات الزواج.. لكنى كما تعلمين دبرت نصيبى.. أى المهر والشبكة ومقدم ايجار الشقة بشق النفس..

حتى الاستاذ جبر شارك الجميع فى محاولة التخفيف عن شاهيناز ووسط حزنها لم يسعها إلا العجب.. أول مرة خلال حياتها

الطويلة معه تصدر عنه تجاهها مثل هذه المشاعر الطيبة الحنون حتى قالت فى نفسها "لا شك معدنه طيب.. ذلك الذى لا يتجلى إلا فى وقت الشدة" رغم أن كل ما فعله لها كلمات..قال بصوت متأثر غاية التأثر وهو يربت كتفها:

– لشد ما أنا متألم لسرقة النقود يا شاهى.. واؤكد لك أننى لو كنت امتلك مالا سائلا لعوضتك عما ضاع.. طبعا تعرفين –وأمك ايضا تعلم ذلك علم اليقين– أننى وضعت كل ما أملك فى مقدم الشقة التى احتجزتها بمدينة نصر.. بل لا أكتمك أننى اضطررت لاستدانة بضعه آلاف من الجنيهات حتى أكمل مبلغ المقدم..

لأسابيع بعدها ظل الأمل يراود الاسرة أن يصل البوليس إلى السارق حتى يستطيعوا استرداد مبلغهم المسروق.. لكن شيئا من ذلك لم يتم، كان الحادث غامضا حير رجال البوليس أنفسهم فلم يستطيعوا التوصل لغير معلومة واحدة.. أن اللص أتى وخرج عن طريق نافذة الحمام المستديرة كما نوافذ السفن.. ثم نزل على المواسير، وذلك لاكتشافهم بعض علامات حذاء على قاعدته.. أيضا لعثورهم على جهاز التليفزيون ملفوفا فى صرة من القماش وملقى على أرض الحمام.. ويبدو أنه سمع وقع اقدام الأم التى تستيقظ مبكرة لصلاة الفجر فى طريقها للحمام فترك التليفزيون وأسرع بالهرب مكتفيا بالنقود وجهاز كاسيت وشمعدانين من الفضة فقط.

الصدمة كانت قاسية على شاهيناز.. لم يسرق اللص نقودها فحسب لكنه سرق احلامها بالانتقال إلى عش جميل دافئ تكون هى

سيدته وملكتــه المتوجــة بــلا منــازع.. وبجوارهــا فــارس الاحــلام المغوار.. تاركة وراءها حياة لم تحس فيها ابدا بكيانهـا.. بانتمائهـا.. بأن أحدا يهتم بأمورها ومشاعرها، حتى أنه.. ذلك الذى يفـترض فيـه أن يكـون لهـا بمثابـة الأب يقيـم الدنيـا ويقعدهـا بسـبب صرخـة خافتـة أفلتـت منهـا رغمـا عنهـا لمنظـر أرعبهـا، كـانت قد استبشـرت خـيراً بتحسن معاملته بعد حـادث السـطو.. لكنـه مـا لبـث أن عـاود سـيرته الأولى بعدها بأيام.. حتى أنه فى ذلك اليوم راح يهدر:

– ياسخطة كده.. تصرخ بسبب صورة فار؟.. كأنهـا مـازالت طفلة صغيرة..

الآن ها هو بنفسه يصرخ.. فهل تراه هو أيضا قد انسخط إلـى طفل صغير؟ دفعهــا الفضـول أن تذهـب لـترى سـبب هـذا الصـراخ.. وأيضا من باب الذوق أن تسأله إذا كان فى حاجة لمساعدة، عند بـاب غرفة أخويها تسمرت.. فى مواجهتها كانت هنـاك قطعـة مـن الاثـاث القديمة الطراز يطلقون عليها "بوريه" تحـوى ثلاثـة أدراج عريضـة.. وضع فى الدرج الاسفل بعض الاحذية غير المستعملة.. وفى الاوسط عديـد مـن لعـب الشـقيقين.. السـليمة وايضـا المحطمـة، وفــى الـدرج الاعلى بعض الجرائد والكتب القديمة الخاصــة بالاسـتاذ جـبر، الـدرج الأعلى كان منزوعا مـن مكانـه وملقـى علـى الأرض.. وقـد تنـاثرت حوله الاوراق والمجـلات.. وظهـر فـى قاعـة صنـدوق مـن صنـاديق الاحذية يحوى فتافيت متناثرة من عشرات الأوراق المالية الحمـراء..

فئة الجنيهات العشرة.. نقودها التى اختفت من شهور، وبجوارها يجلس زوج أمها وقد جحظت عيناه فى حالة ذهول تام.

طبعا لم تكن تحتاج لكثير من الذكاء حتى تدرك من فورها أن السارق المجهول انما كان هو الاستاذ جبر بنفسه.. وإن استطاع التمويه حتى على البوليس فصور الامر -ببراعة تشهد له- كما لو كان سرقة خارجية، تقدم سمير الصغير يرفع الصندوق الكرتونى من الدرج لكنه يعود ويسرع بالقائه على الأرض عندما شاهد عددا من الفئران السمينة - لكثرة ما أكلت من أوراق النقد- تخرج متقافزة من بين ما تخلف عنها من فتات تلك الأوراق، عجبت شاهيناز بعض الشئ من وجود الفئران فى شقتهم.. وكانت تظنها متواجدة فى الحقول الزراعية فقط.. لكن عجبها الاكبر كان لثبات جأشها حتى أن صرخة لم تفلت منها وهى تشهد كل هذه المجموعة من الفئران تجرى هنا وهناك.. على العكس كانت تنظر إليها وكأنها تنظر إلى مجموعة من الاصدقاء.

قبل أن ينتهى والدها من حديثه.. وجدت دموعها تسيل فوق خديها فى صمت، كأنها حبات مسبحة تقطعت فتساقطت متتالية، لذلك لم تستطع أن ترد، فقامت من أمامه دفعة واحدة.. واتجهت مباشرة إلى باب الخروج، وماذا عساها تقول له؟ لو انها وافقته على طلبه لكان فى ذلك اعتراف منها بأنه تخجل منه، وهل هذا معقول؟... ذلك الرجل الطيب السريرة.. حتى ليتسع قلبه لحب الناس أجمعين؟..

لكن هناك أيضاً نظرة المجتمع وقيمه.. وموازين أخرى مختلفة يستخدمها فى تقييمه للاشخاص، من أجل ذلك رفض عقلها أن يستنطقها بكلمة "لا" التى أراد قلبها أن يقولها، راحت تحدث نفسها بذهول:

- عندما كنت أرى مثل هذه المصادفات فى الأفلام السينمائية ـ المصرية منها بالذات ـ أروح أسخر منها.. بينما مصادفة اليوم ربما تفوق تلك التى بالأفلام.

حقاً .. فى القاهرة عشرات .. وربما مئات المستشفيات، حكومية وجامعية وخاصة واستثمارية.. فلماذا لم يدخل "وجدى" سوى مستشفى المعادى.. وفى الدور الرابع بالذات؟، ذلك الذى يعمل والدها فراشاً به.. يقدم القهوة والمرطبات للزائرين. محنياً هامته أمام كل

واحد منهم، عندما زاد مرتبها فى الفرقة الكبرى للفنون الشعبية.. طلبت منه أكثر من مرة أن يترك عمله .. لكنه كان يرفض:

- لا تتصورى كم يؤلمنى أن تساهمى فى مصروفات شقيقيك.. فكيف تطلبين منى أن أعيش أنا نفسى عالة عليك؟، أما عن اقتراحك بأن أعمل عملا آخر.. فلعلمك.. أنا لا أتقن أية حرفة سوى هذه التى عملت بها طوال عمرى..

وحتى بعد أن أصبحت "البريمادونا" فى الفرقة ظل متشبثا برأيه، عضت على شفتيها وهى تتمتم بمرارة:

ليتنى لم أصبح بريمادونا .. ليحدث ذلك الشرخ الكبير فى حياتى، بل ليتنى ظللت أعمل باليومية فى مصنع شريبةللحلويات .. فيالها من نقلة ضخمة.

هل كان يمكن أن يتصور أى انسان – سواء من أقاربها أو جيرانها أو زميلاتها أن تصبح هذه الصبية النحيفة السمراء.. بطلة فرقة استعراضية؟، هى نفسها لم يصل خيالها إلى ذلك حتى وهى ترقص حالمة أمام التليفزيون، بعد أن يخرج شقيقاها ليلعبا فى الشارع. وتذهب أمها لزيارة بعض الجارات. تدير التليفزيون وتروح ترقص مع الراقصات وهى تتخيل نفسها على خشبة المسرح. لدرجة أن تنحنى لتحيى الجماهير الوهمية بعد انتهاء الرقصة.

حتى كان ذلك اليوم الفاصل فى حياتها.. عندما قرأت على شاشة التليفزيون اعلاناً يطلب فتيات يجدن الرقص، وذهبت .. ونجحت، طبعاً عارض والدها.. لكنها ظلت تلح وتتوسل حتى قبل، ثم بعدها تتفوق فى التدريب لدرجة بهرت الجميع.

لأعوام طويلة ظلت تنظر إلى هذا الاعلان على أنه كان قدم السعد عليها، لكنها هذا الصباح تمنت لو أنها لم تقرأه.. ليته أذيع وهى فى عملها. أو ليت التليفزيون يومها كان معطلا.. أو ليت التيار الكهربائى ـ كما يحدث فى أحيان كثيرة ـ كان مقطوعاً كلية، هذا على الرغم من كونها موضع التقدير والاعجاب من الجميع.. وأيضاً موضع الحسد من الزميلات، حيث صعدت درجات النجاح بسرعة الصاروخ.

ثم تجيئها فرصة العمر باعتذار البريمادونا عن عدم السفر مع الفرقة إلى بعض العواصم الأوروبية، ولم يكن هناك سواها التى تجيد كافة الرقصات ومن ثم تستطيع انقاذ الموقف، لتنجح ـ وتنجح الفرقة معها ـ نجاحاً مذهلاً، حتى انهم فى كل عاصمة قدموا فيها فنهم.. كانوا يدعون جميعاً لتناول العشاء على مائدة رئيس الدولة، وسط مدعوين على أعلى المستويات ـ يقبلون يدها عند التعارف ـ حول موائد أنيقة مزينة بالورود .. تحوى أفخر الأطباق.

بداهة شعرت بالرهبة فى أول الأمر، لكنها بنفس الذكاء الذى مكنها من تعلم خطوات رقصاتها بسرعة ومهارة تعلمت كيف تتصرف فى هذه الموائد، بداية من استعمال الأدوات .. وحتى الرد على مجاملات الرؤساء وفق البروتوكول .. كأى سيدة عريقة فى الاستقراطية.

طبعاً كان لابد أن تحاول الظهور فى صورة تتناسب مع فخامة تلك الحفلات، بأن ترتدى أشيك فساتين السهرة.. وتتعطر بأثمن العطور .. وتصفف شعرها عند أشهر كوافير بالمدينة، مع ذلك فأنها لم تكن تنسى نفسها تماماً، فجأة .. وهى فى قمة انسجامها واستمتاعها بالحفل.. يضيع مذاق كل شئ.. وتشعر بغصة فى حلقها عندما يقدم لها أحد السقاة كوبا من العصير .. أو فنجاناً من القهوة .. وهو ينحنى أمامها كرقم ستة.

بقدر ما استطاعت.. حاولت ـ بعد عودتها ـ أن ترفع من مستوى معيشة أسرتها، فاشترت بكل مدخراتها من الرحلة حجرة للصالون وأخرى للمائدة، وبذلك أحالت "الطبلية" وبقية كراكيب الشقة إلى المعاش، أيضا صممت أن يدخل شقيقها كلية الهندسة .. متعهدة بكل مصروفاته، بعد أن كان والدها راغبا فى أن يعمل بالتوجيهية، كذلك استبدلت بالتليفزيون العادى.. آخر ملونا من أكبر حجم، لهذا أصبح العديد من الجيران يحضرون عندهم ليشاهدوا المسلسلات بالألوان، اما عندما كان التليفزيون يذيع بعض رقصاتها.. فإن والدتها

تقوم بنفسها بدعوة الجيران ليروا إبنة حيهم المبهرة.. فى حين تكاد رقبتا الأب والأم تصلا إلى السماء تيها وفخرا، أكثر رقصاتها اثارة للاعجاب رقصة الزفة.. وفيها تقوم إلهام بدور العروس.. وباقى الراقصات والراقصين من حولها يدورون، وترفع أمها يدها إلى السماء.. داعية الله أن يحول التمثيل إلى حقيقة، لكن إلهام - على ما يبدو - لم تكن متعجلة لهذا الأمر .. بعد أن أرضت هوايتها المحببة.

على أن الشرخ الرهيب فى حياتها لم تبد خطورته الحقيقية إلا بعد ذلك بسنوات، عندما أحبت وجدى .. مدير الفرقة، الذى صارحها هو أيضاً بحبه.. ورغبته فى طلب يدها، وانطلقت تتشمم مركز أسرته الاجتماعى حيث فى بعض المهن أو الطوائف تكاد تتقارب المستويات، إلا فى محيط الرقص.. أو الفن عموماً، فإن الله قد يضع موهبته الفطرية.. وأيضا الهواية المتمكنة.. فى شاب من اسرة متوسطة.. أو من أسرة كبيرة .. سواء بسواء وأمامها سهير التى يعرف الكل أنها ابنة سفير.. والتى لا تحضر البروفات إلا فى سيارة فارهة يقودها سائق أسمر، بعد عناء كثير فى التحريات.. صدمت عندما توصلت لمعرفة أن وجدى ينتسب إلى أسرة تعتبر فوق المتوسطة بكثير، وفكرت أن تتباعد عنه.. لكن ذلك لم يكن سهلا، فأحياناً كان الحنين يجرها إليه متوسلاً.. وأحيان أخرى كان الآباء يردها عنه معنفا، يظل دائما الحب أقوى من أية محاولات، وبدأ العذاب يخط سطوره الكئيبة على وجهها، وقلب الأم - أى أم - يحوى

دائما رادارا يقرأ أصعب السطور، انفردت بها يوما وسألتها.. وإذا بالبريمادونا الكبيرة تلقى بنفسها على صدر أمها وتحكى لها - من بين دموعها - ما هى فيه من عذاب، أخيرا سألتها.

- هل يمكن أن أطلب من أبيه.. المحامى الكبير.. الحضور كى يطلبنى من أبى؟

فكرت الأم برهة ثم سألتها:

- ألا تستطعين تأجيل الخطبة عاما واحداً؟

- لكن.. ماذا عساه.. بالله عليك.. يحدث فى ذلك العام الواحد؟

- بعد عام يتخرج شقيقك خالد من كلية الهندسة .. وينتقل أخوك الاصغر إلى السنة الأولى بكلية الطب، فتصبحين شقيقة المهندس والدكتور، الأهم من ذلك أنه بعد عام واحد يبلغ أبوك الستين فيترك المستشفى، عندئذ تستطيعين الاكتفاء بنصف الحقيقة حين تقدمي والدك لوالد وجدى.. المحامى الكبير إياه.. على أنه موظف سابق بالمعاش فى مستشفى المعادى، وطبعا كلمة موظف كلمة فضفاضة يمكن أن تستوعب كافة العاملين.. بدءا من مديرى العموم حتى الفراشين.. وبالتالى لن تكونى كاذبة..

هدأ حديث الأم من توتر "إلهام" كان كلامها يحمل قدراً كبيراً من المعقولية، ولم يكن من الصعب على البريمادونا أن تجد السبب لرغبتها فى التأخير:

ـ الفرقة تعد العدة لرحلة طويلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد شهور، وأنا أرى أن تنتظر حتى نعود من هذه الرحلة، أولاً كى نستوثق من مشاعرنا.. وثانياً حتى لا يكون هناك ما يشغلنا عن الاستعداد للرحلة.

طبعا وجدى لم يقتنع.. تماماً.. لكنه اضطر للموافقة على مضض: كما ترين.

لم يكن قد مرمن العام الموعود أكثر من شهرين عندما أصيب وجدى بآلام لا يعرف لها سببا، ورأى طبيبه المعالج ضرورة فحصه بأجهزة لا توجد إلا فى مستشفى المعادى للقوات المسلحة، وهناك.. زاره جميع العاملين بالفرقة.. عداها وبدأ يسأل عنها.. ويلح على الجميع أن يبلغوها لهفته لرؤياها..

وكالفيلم الذى يتكرر عرضه.. ما حدث بين إلهام وأمها.. بدءا من سطور العذاب المخطوطة على وجهها.. ومرورا بسؤال الأم وبكاء الابنة وهى تحكى ما ينوء به قلبها، فقط هذه المرة أضيف مشهد جديد لنهاية الفيلم، الأم صارحت الأب.. الريس عزت، رغم حظه القليل من التعليم كان حصيفا، تجارب كثيرة تتابعت عليه وتركت بصماتها داخلة وخارجة، تقبل حديث زوجته بصمت يسير ثم نادى ابنته.. وبدأ يمهد لما عنده:

ـ هل تعلمين أن مدير فرقتك مريض عندنا بالمستشفى؟ الحقيقة اننى اطمأننت عليك أن تعملى مع شخص على هذا الخلق، لكنى اسالك .. لماذا لم تزوريه حتى الآن رغم أن الجميع فعلوا؟ لا يا إلهام. هذا لا يليق.. لابد ان تقومى بزيارته هذا المساء، فقط لى طلب واحد عندك، إذا حدث ان أحضرت لضيوفه ـ وأنت بينهم ـ بعض المشروبات.. فلا تحدثينى قط، تظاهرى بأنك لا تعرفينى على الاطلاق، كان فى استطاعتى أن آخذ اليوم اجازة عارضة.. لكننى أود أن أراكما معا وأرى فى عينيه معزته لك.. فلا تحرمينى من هذه السعادة..

لكنها لم تستطع أن ترد فقامت من أمامه دفعة واحدة.. واتجهت مباشرة إلى باب الخروج، وماذا كان عساها تقول له؟ لو وافقته على طلبه لكان فى ذلك اعتراف منها بأنها تخجل منه.. من أبيها.. فهل هذا معقول؟ ولكى تكذب له ظنونه عمليا فإنها ستذهب اليوم وتقبله أمام وجدى.. وتقدمه له، حتى تعرفه بالحقيقة كاملة.. وليس نصفها فقط، بيد أنها ما تكاد تتخيل المنظر حتى يوشك قلبها أن يسقط فى قدميها، هل تخسر وجدى إلى الأبد، وكيف يطاوعها قلبها على أن تمد أصابعها حول عنق الحب الأول والوحيد فى حياتها؟ بل توقن انه الأخير أيضاً .. فلا تعتقد ان القلب يمكن ان يخفق بكل هذا الصدق والقوة مرتين، وحتى إذا قدر لها ان تفقده.. الا تحاول ان

تؤجل ذلك إلى ما بعد الرحلة؟ ففى الغربة.. بعيدا عن الأهل.. يتمنى الانسان لو يجد بجانبه قلبا يهتم به.

لقد ظلت تعيش على ذكريات الرحلة السابقة طوال السنوات التى تلتها.. وعلى أمل رحلة جديدة، فهل تهدم كل قصور الأمانى وتطفئ كل شموع النور.. وتفسد كل متع الرحلة القادمة.. إذا سافرت وهى كسيرة القلب؟ هل تترك السعادة تغرب إلى مجهول دونما أى أمل فى شروق، وماذا لو نفذت رأى أبيها؟ كان الأمر كفيلا بأن يحز فى نفسه لو أنها هى التى طلبت منه ذلك، لكنها رغبته هو.. هو الذى اقترحها عليها بنفسه، ويضحك ضميرها ساخرا:

- أنا واثق. وأنت أيضاً.. أنه بهذا الطلب كان يضحى وأنه طلبه وقلبه ينزف.

كان لكل من المنطقين وجاهته.. حتى توزعت بينهما مناصفة، لذلك فانها إلى اللحظة التى دخلت فيها على وجدى كان الصراع مازال محتدما والأفكار تتصادم فى رأسها، لم تكن قد استقرت على رأى بعد، لكن ما كاد والدها يدخل بصينية الليمون.. حتى وجدت ساقيها كما لو كانتا قد تحولتا إلى كيسين من الرمال.. فى حين تصلب لسانها داخل فمها مثل عود الحطب.. حسنا.. إذن لقد حسم الأمر.. ستنفذ طلب والدها، وان لم يكن ذلك عن اختيار.. ولكن عن عجز.

بدأ عم عزت يقدم أكواب العصير إلى زميلات ابنته وزملائها، حتى لم يتبق سواها وسهير.. وإذا به يرتبك ـ بالتأكيد كان الموقف أقوى من قدرته ـ إذ بالصينية تهتز في يده.. فيسقط احد الكئوس على ثوب سهير، واثار هذا المشهد بطبيعة الحال وجدى.. فإذا به يخرج عن هدوئه ليصيح فى الفراش الذى كان واقفاً مثل الصنم:

ـ ما هذا يا حيوان؟

فى ثانية واحدة انفك أسر ساقى إلهام ولسانها.. فهبت من مكانها تحتضن أباها صارخة:

ـ لا .. لا أسمح أبداً لأى مخلوق بأن يهين .. أبى.

عندما خرج الطبيب من غرفة ابنتى.. أحسست أن وراء العبوس الذى غطى وجهه أخباراً سيئة، لكن تفكيرى -مع كل توجسى- لم يصل أبدا للحقيقة الرهيبة، قال بصوت خافت:

- مع الأسف.. الحالة دقيقة جداً.. حمى مخية شوكية، تأخرت فى استدعائى يا عايدة هانم.

صحت بلهفة : كل الأعراض كانت تؤكد أنها نزلة برد، وقد تعاملت معها على هذا الأساس.

- وذلك هو وجه الخطورة فى هذا المرض اللعين، تشابه أعراضه الاولى مع نزلات البرد.. التى عادة ما تعالجها الاسرة، وفجأة تتدهور الحالة، عموما مازال الأمل فى الله، بدأت معها فورا العلاج المناسب، وأمامنا أربع وعشرون ساعة ليظهر لنا مدى استجابتها للعلاج، فإذا مرت هذه الساعات وهى بخير.. تكون قد اجتازت مرحلة الخطر.

لم أشعر بالطبيب وهو ينصرف.. ولا من أوصله.. ولا من أعطاه اتعابه.. ولا ولا ولا.. انصرفت بكليتى إلى حماتى التى وقفت قبالتى تردد فى صوت شديد التأثر:

- هل أدهن نفسى بالعسل؟.. هل أدهن نفسى بالعسل؟.

ظلت تردد الجملة مرات ومرات، وفى كل مرة كان صوتها يزداد ارتفاعا، اقتربت منها لأحاول إسكاتها فإذا بها تختفى فى لمحة، اختفت بجسدها لكن صوتها ظل يتردد مالئا فراغ المكان كله "هل أدهن نفسى بالعسل؟"، رفعت يدى أسد أذنى بهما.. لكن الجملة مع ذلك ظلت تتكرر بصوت واضح، إذن فالصوت لا يأتينى من الخارج حتى استطيع صده بغلق أذنى. وانما من الداخل. من داخلى، لكن. ما الذى يعنيه هذا؟ وفى هذه اللحظة بالذات؟. هل يعنى ذلك أننى ظلمتها؟ أسرعت أؤكد لنفسى فى جزم:

- إطلاقا.. وكل ما فى الأمر أننى تمسكت بحقوقى التى...

قاطعنى بصوت غاضب.. ضميرى: اسمعينى ولو مرة واحدة، ابنتك الآن بين يدى الله، إما شفاها وردها لك.. وإما حرمك منها إلى الأبد، فى مثل هذه اللحظات الفاصلة يجب أن تزنى الأمور بميزان آخر.. غير ميزانك الخاص.

وكان لابد أن أفعل، خرجت من جلدى.. من ذاتى.. من عايدة، وحلقت خفيفة متجردة.. أنظر إلى الأحداث الماضية من فوق، جميع الأحداث.. منذ التقيت بمروان.. وأحببته، حبا ملك على مشاعرى وأحاسيسى، حتى نظرتى للدنيا من حولى تغيرت، أصبحت أراها وقد تحولت بأكملها إلى حديقة يانعة.. نساؤها زهور تتضوع بالعطر.. ورجالها طيور تغرد على

الأغصـــان، تعـزف لــي ومـروان سـمفونية الحـب الدائـم.. إلــى الأبـد، لذلـك لـم تسـعنى الفرحـة حيـن طلـب يـدى، ومضينـا نسـبح فـى الأحـلام، حتـى أيقظنـى منهـا مـروان علـى واقـع قـاسٍ، إنـه يريد منى أن نتزوج مع أمه، قال فى حنان غريب:

– ليس لهـا الآن بعـد وفـاة والـدى وزواج شـقيقتى الوحيـدة وسفرها للخارج.. سواى، فكيف أتركها وحيدة فـى هذا العمر.. وهـى التى كرست شبابها كله من أجـل تربيتـى؟ قلت بعذوبـة أعرف جيدا مدى تأثيرها عليه:

– أنت لن تتركها، بوسعك أن تزورها كل يوم، لكـن فـى حياتنـا الخاصـة.. لا بـد وأن نكـون مسـتقلين، هـذه سـنة الحيـاة يـا مـروان.

تنهد وقـال : حسـنا.. المشـاعر والقيـم والواجبـات تحتمـل أحيانـا أكثر مـن وجهـة نظر، أمـا المسـائل الماديـة فهـى واحد زائد واحـد يسـاوى اثنيـن، صـارحتك مـن أول الأمـر أننـى لا أملـك سوى مرتبـى، فمـن أيـن باللـه عليك أستطيع تدبير شـقة؟.

قفزت مشاعر خيبة الأمل على ملامحى.. صحت بغضب:

– إذن كان طلبك يدى مجرد أحلام رومانسية ؟

قال باحتجاج : إطلاقاً لـم أكـن سـاذجا ولا حالمـا ولا متعاميـا، منذ تقدمت لطلب يدك وفى بالى أننا سنتزوج فى شقة الأسرة.. وهـى

ممتازة من كل الوجوه، ثلاث غرف واسعة وصالة فسيحة، العمارة نفسها أنيقة والحى راق، ماذا يريد أى إنسان أكثر من ذلك؟.

قلت بأسف: كل هذا غير مهم، ليتها كانت غرفة واحدة.. وفى ربع قديم لكنها تخصنا وحدنا.

هتف بحماس: هى تقريبا كذلك، لن يشاركنا أحد سوى أمى الحاجة، ولا أظنك سوف تضيقين بالعيش معها، إنها طيبة للغاية.. وتحبنى جدا.. كذلك أحبتك منذ رأتك، لهذا بالتأكيد ستسعدها سعادتنا حيث..

قاطعته : لا اعتراض لى إطلاقاً على "تانت" الغالية، وبأضعاف ما أحبتنى هى أحببتها أنا، لكن أى فتاة تتمنى أن تعيش وزوجها فى عش خاص بهما.. تعتبره مملكتها الصغيرة، لن أحس أبدا بأى فرق إذا انتقلت من العيش مع أمى إلى العيش مع أمك، وكأننى ما تزوجت وأصبحت ربة بيت أنا الآمرة المتصرفة فى جميع شئونه، إنه حقى.. ولن أتنازل عنه أبدا.

رغم غلظتى فى الحديث استمر يجادلنى محاولا إقناعى، لكننى رفضت جميع حججه وتحليلاته، حتى فرغ كل الكلام لديه.. فقال وقد بدا عليه الأسف والإرهاق الشديدين:

- إحضارى شقة هو فى حكم المستحيل، وأمامك الآن ثلاثة بدائل لا رابع لها، إما أن تقبلى شقة أمى.. أو تنتظرينى عشرين عاما

حتى أستطيع تدبير خلو معقول لشقة جديدة أو.. تنفضي يدك مني نهائيا وتتزوجي أي عريس آخر يملك هذه الشقة الغالية.

انصرفت غاضبة.. وصممت على عدم الاتصال به، هو أيضا لم يتصل بي..طوال أسبوع كامل، مر على كأنه عام، عام كئيب.. بارد.. فارغ، لذلك ما كدت أسمع من ابن خالتي الذي يعمل معه بنفس الشركة.. عن عدم حضوره ذات يوم.. حتى بادرت اتصل به مستفسرة عنه، ورد على إنه متوعك قليلا.. لكني صممت أن أراه، ومن ثم وافاني في ركننا المفضل بالكازينو، وهناك عتبت عليه تهديده لي لكنه نفى ذلك بحرارة:

– غير معقول على الإطلاق أن أهددك يا عايدة، وكل الأمر أنني أردت إفهامك أن الشخص لا يمكن أن يحصل على كل شئ في وقت واحد.. الحب والاستقلال، ولا ينازع أحد في حقك أن تختاري.. بين الإنسان والجدران:

واخترت ..مروان، لا يعني ذلك أنني اقتنعت بخطأ رأيي السابق وتخليت عنه، لكنني أحسست أن أي جدران بدون مروان ستكون منحوتة من الثلج.

عندما تم زواجنا دخلت تلك الشقة وقد سبقني إليها إحساس مرير بأنني سلبت حقا من أولويات حقوقي، مؤكد أن هذا الشعور هو الذي سمم حياتي الزوجية من بدايتها، وأفسد كل محاولة قامت بها

حماتى لإرضائى، نعم فأنا من أول الأمر كنت قد حصنت نفسى ضد مشاعر الرضا عنها..

طبعا وقتها لم أحس بذلك، لكننى الآن وأنا فى هذه المواجهة الصريحة التى تتم لأول مرة.. وعملية التحليل المحايدة التى أجبرنى عليها ضميرى.. أرى أشياء كثيرة.. منعتنى العصابة التى وضعتها فوق عينى من رؤيتها فى حينها، هذه العصابة كان اسمها "حقى فى عش لا يتسع لأكثر من عصفورين"، ككل البنات من حولى، أرى كم حاولت حماتى جاهدة أن تسعدنا.. أنا قبل زوجى.. ابنها، معاشها الصغير كله تنفقه فى المنزل.. تقوم بالعبء الأكبر من أعماله.. تستشيرنى فى أى شئ يختص بكافة أموره مهما كان صغيرا.. تقضى يوم العطلة الأسبوعية لدى شقيقتها حتى تترك لى فرصة الشعور بالاستقلالية والتصرف وحدى فى شئون البيت.. اشترت تلفزيونا صغيرا وضعته فى حجرتها حتى لا تكون ضلعا ثالثا معنا طوال وجودنا بالمنزل.. بعد إنجابى أميرة بدأت تشاركنى رعايتها حتى تمنحنى الفرصة للخروج مع زوجى إلى السهرات أو الزيارات وأنا مطمئنة لوجودها فى رعاية أمينة الخ الخ..

الغريب أننى لم أظهر لها أبدا امتنانى لأى تصرف من هذه التصرفات، على العكس -واعترف- كنت أشعر بالضيق والغيظ فى داخلى.. وأزداد منها نفورا كلما قامت بإحدى مجاملاتها تلك، لتصورى أنها بذلك تحاول أن تجردنى حتى من سلاحى فى معركتى

الخالدة.. لإقناع زوجى أن يعمل على استقلالنا بشقة.. ولو بعد سنوات، وكأنها تود أن تظل تمتلك ابنها.. تحتويه.. تحكم قبضتها عليه.. تجعله يدور فى فلكها -وأنا معه فى كل هذا- طوال العمر، فى حين أنا من ناحيتى كنت أود ان أظهر له كم أنا شهيدة لإقامتى مع حماتى فى معيشة واحدة، لكنها مع الأسف لم تمكنى من الإستمتاع بشعور الإستشهاد.

وإذا كانت هى لا تعطينى الفرصة لأن اختلف معها.. فإلى من كنت استطيع توجيه طاقة السخط داخلى؟، إلى مروان طبعا، من ثم كثر بيننا الشجار والخصام والأزمات والنكد.. رغم حبنا القديم، لدرجة أننى نفسى كنت أندهش أحيانا من نفسى.. كيف يطاوعنى قلبى أن أمد أصابعى لتلتف حول عنق هذا الحب؟، حتى أصبحت حياتنا معا مستحيلة.. فوقع أبغض الحلال إلى الله.

ليت أحدا نبهنى إلى خطئى فى ذلك الوقت، فالعجيب أن أمى كانت من ورائى تملؤنى وتحمسنى فى المطالبة بحقى المعهود، لكن كيف ألومها على نظرتها تلك.. إذا كنت أنا الجامعية نسيت ما تعلمناه من أنه لا حرية مطلقة.. وإنما حرية كل فرد مقيدة بحرية الآخرين.. ولا حق مطلق وإنما يجب مراعاة حقوق الآخرين. أحس اليوم كم أفتقد والدى بحكمته البالغة.. أعتقد أنه لو كان على قيد الحياة لصرخ فى وجهى أيامها:

- حقك.. حقك.. لا ترين إلا حقك وحدك؟، فماذا إذن عن حق والدة مروان فى أن تعيش الأعوام الباقية من عمرها بالقرب من قرة عينها ووحيدها الغالى؟

المهم.. بعد الطلاق أقمت دعوى على زوجى أن يوفر لى مسكنا باعتبارى حاضنة، وقالت لى أمه إن القانون يسمح لى أن أظل مقيمة معها فى شقتها.. لكنى رفضت بشدة.

- معقول؟.، إذا كانت إقامتنا معك هى سبب تحطم زواجنا..فهل أظل معك بعد الطلاق؟

لن أنسى أبدا ما حييت نظرة الألم والعتاب المرير فى عينى أم مروان التى بهتت من ردى، فلم تزد عن جملة واحدة :

- عملت كل ما بوسعى كى أسعدك لكننى لم أفلح، فماذا عساى كنت أفعل أكثر مما فعلت كى تحبيننى .. هل أدهن نفسى بالعسل؟..

لا أنكر أننى لأول مرة أحس لها بالأسى، شعرت أن جملتها الضعيفة قد تحولت إلى قبضة من فولاذ..عصرت قلبى، لكن كان الوقت قد فات.

فى تلك الفترة بالذات حصل مروان على عقد عمل -الذى كنت أنا قد دفعته دفعا للسعى من أجله- فى إحدى الدول البترولية، لكنه لم يكن ليستطيع السفر وقضيتى ضده معلقة، عندئذ أقدمت حماتى

-السابقة- على تضحية أذهلت الجميع.. تضحية لا تقوم بها إلا أم.. تضع مصالح ابنها وراحته فوق كل مصالحها الشخصية، أخبرتنى أنها ستترك لى الشقة أنفرد فيها وابنتى، وتذهب لتقيم فى إحدى دور المسنين.. حتى أتنازل عن كل قضاياى مع مروان، قالت لمحاميها ببساطة شديدة عندما حاول تحذيرها من هذا التصرف:

- هذه الشقة غالية على جدا بالفعل.. والسبب أننى كنت أرى فيها وسيلة لراحة مروان عندما يتزوج ويسعد بها، وهى الآن تتيح لى أيضا أن أجعل منها راحة لمروان.. من القضايا والمشاكل التى لن يستطيع لها حلا.

وانفردت بالشقة .. لكن لتتحول إلى سجن.. بل إلى قبر، بعد أن هجرها الحب والحنان والدفء والونس.. والمشاركة فى المرة قبل الحلوة.. و.. و.. فلا أحد يستطيع تصور مشاعر امرأة تعد طبقا واحدا بعد أن كانت تعد اثنين.

وتمر عشرة شهور افتقدت فيها مروان بصورة لم أكن أتخيلها، وكان سؤال أميرة المستمر عنه يمزق قلبى، ذلك السؤال الذى لم ينقطع حتى وهى تجرى جراحة استئصال اللوز، فأسرعت أطلب مروان تلفونيا لأستغيث به، ولم يخيب رجائى.. حضر فى اليوم التالى، مشاعره كانت تدفعه إلى بالحنين.. وتصده عنى بالكبرياء. لكننا وبجوار فراش أميرة فى المستشفى تحاورنا وتعاتبنا وتصافينا،

وقد جرف الشوق كل منا للآخر، من ثم اتفقنا علـى عـودة المياه إلـى مجاريها بيننا، بعدها سافر إلى عمله الذى كان متبقيا على انتهاء عقده بـه شـهران فقط، حيث قررت الشركة -بسبب انخفـاض البـترول وأسعاره- قررت أن توفر نصف عمالها وموظفيها.

وهكذا عدت ومروان نستأنف حياتنا الزوجية مـن جديـد.. ليفاجئنى بعد أسابيع برغبته فى عودة أمه للإقامة معنا.. مذكراً إياى أنها شقته، لكننى ثرت عليه:

- هل أوحشتك الخلافات والأزمات؟، وحتى إذا اتهمتنى بـأننى أنـا -وليست هـى- التـى كنـت أتسبب فيهـا.. فهـو شـئ خـارج عـن إرادتى.. تماما، باستمرار كنت متوترة حالتى النفسية سيئة.. لشعورى بالغبن وحرمانى من حق أساسى لى، ثم ما الضـرر مـن بقائهـا حيـث هى؟، كنت دائما تتعلل - عندما أطـالبك بشقة منفصلـة - بخوفك مـن مـرض أو إغمـاء يصيبهـا وهـى وحيدة فـى شـقتها، الآن هـى تحـت إشراف المسؤلين عن الدار، وطبعا هى الآن كونت لها صداقـات مـع زميلاتها هناك.. مما يجعلها.. بالتأكيد.. أسعد مما كانت معنا.

ويسكت مروان.. لكنه أبدا لم يكن مقتنعا بمنطقى، خيط الأسـى الـذى ارتسـم فـى عينيـه جـزم بذلـك.. لكننـى اسـتطعت أن أخـرس ضميرى عندما حاول أن ينبهنى إليه، زجرته بحسم:

– مــاذا ينقصـهـا أو ينقصــه؟، ألا يذهـب إليهـا مرتيـن أسـبوعيا ليقضى معها السـاعات الطـوال؟، ألا يـأخذ إليهـا فـى – إحـدى هـاتين المرتين– حفيدتها الغالية لتراها وتسعد بها؟، بل وأصحبهما أنا أحيانا، ماذا تريد هى أو يريد هو أكثر من ذلك؟.

لكن هاهو ضميرى يواجهنى الآن فيرد على سؤالى الحائر:

– نعم ظلمتها.

وهو لم يستمد قوته اليوم فقط من ضعفى بسبب خطـورة حالـة ابنتى، ولكن لأننى أنا أردتها مواجهة صريحة، ربما لو اعترفت بأننى ظلمت حماتى.. ثم حاولت إصلاح ذلك الظلـم .. شـفاها اللـه لـى، مـا العجب.. وقد كانت أميرة أداتى ووسيلتى التى استخدمتها لكـى أخـرج السيدة المسـكينة – التـى لـم تسـئ لـى قــط– مـن شـقتها.. حصنهـا وأمانها.. وموطن ذكرياتها الغالية، وأفرق بينها وبين وحيدها.

من يدرينى أنها ربما دعت علـى مـن فعـل بهـا ذلـك.. علـى.. ونظرة عينيهـا حيـن سـألتنى سـؤالها السـاخر المريـر ذاك "هـل أدهـن نفسـى بالعسـل؟" مـازالت محفـورة فـى خيـالى، وكمـا يقـول الحديـث الشريف "اتق دعوة المظلوم.. فإنه ليس بينها وبين الله حجـاب" طبعـاً أنا أستبعد تماماً أن تكون دعوة حماتى موجهة مباشرة إلى أميرة..فأنا أعلم جيدا أنها تحبها بصورة خرافية، وتنتظر زيارتها الأسـبوعية لهـا بشوق بالغ.. حيث تعد لها كل ما تعرف أنها تحبه من فاكهة أوحلـوى

أو هدايا صغيرة، لكنها إذا دعت علـى أنـا.. فـأى ضـرر يمـس ابنتـى يصيبنى فى مقتل، بل حتى إذا لم تدع.. فيكفـى غضـب قلبهـا دون أن تتلفظ بلسانها.

أسرعت أرتدى ملابسى، من سيرانى أخرج لا بد سيظننى قد جننت.. أن أترك وحيدتى فـى هذه الحالـة، لكنـى صممـت ألا أعـود بدونها، الحاجـة الطيبـة، لكـى تجلس بجـوار أميرة.. وتربـت جبينهـا الملتهب.. وتدعو لها من قلبها الطـاهر، عسـى اللـه أن يسـتجيب ذلـك الدعاء .. ويحقق أملنا ورجاء الطبيب المعالج فى الشفاء العاجل.

## المحتويات


صفحة

زيارة سريعة .. وأعود ........ ٧

رجل المهام الصعبة ........ ٢١

سفيرة فوق العادة ........ ٢٩

حكاية موظف اختفى من خلف مكتبه ........ ٣٩

فى المجلس الموقر ........ ٥٥

رصاصة من الكلمات ........ ٦١

الجريمة الفريدة للمطربة فريدة ........ ٦٩

بلاغ.. لمن بيده الأمر ........ ٨١

حريق ........ ٩٣

البيت الكبير ........ ٩٧

كنت أعرف ........ ١٠٩

المصلحة قبل الحب.. أحيانا ........ ١٢١

صرخة شقت سكون الليل ........ ١٢٩

لا أسمح أبداً ........ ١٣٧

هل أدهن نفسى بالعسل ........ ١٤٧

## الكاتبة فى سطور

## إحسان كمال

عضو مؤسس باتحاد الكتاب

عضو نادى القصة وجمعية الأدباء وجمعية الكاتبات واتحاد السينمائيات العرب نشر لها ما يزيد على مائتين وخمسين قصة بأغلب الجرائد والمجلات المصرية والعربية صدرت لها ثمان مجموعات قصصية.

١) "**سجن أملكه**" عن هيئة الكتاب "الكتاب الماسى عام ١٩٦٥
٢) "**سطر مغلوط**" / مشتركة / عن هيئة الكتاب عام ١٩٧١
٣) "~~**الحب أبداً لا يموت**~~" "أحلام [illegible]" عن روايات الهلال عام ١٩٧٦
٤) "**الحب أبداً لا يموت**" عن روايات الهلال عام ١٩٨١
٥) "**أقوى حب**" عن كتاب اليوم عام ١٩٨٢
٦) "**لحن من السماء**" عن هيئة الكتاب عام ١٩٨٧
٧) "**ممنوع دخول الزوجات**" عن كتاب اليوم عام ١٩٨٨
٨) "**ضيفة الفجر**" عن هيئة الكتاب عام ١٩٩٢

~~أيضاً لها مجموعة تحت الطبع عن كتاب اليوم بعنوان "بصمة شفاه"~~ كذلك لها مجموعة قصصية صدرت فى باريس عن دار نشر فرنسية بعد ترجمتها إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان" آدم لن يطرد

٩) "قبل الحب أحيانا" عن دار قباء عام ٩٨
١٠) "بصمة شفاه" عن دار أخبار اليوم عام ٩٩
أيضا لها مجموعة تحت الطبع عن اتحاد الكتاب بعنوان "خيط لا ينقطع"

من الجنة مرتين وذلك عام ١٩٩١ كما ترجمت بعض قصصها لتنشر فى مجموعات مشتركة مع عدد من الكتاب المصريين والعرب، وذلك إلـى ست لغـات عالميـة "الإنجليزيـة والروسـية والسـويدية والصينيـة والهولندية".

حصلت على جائزة نادى القصة مرتين عامى ٥٧ و١٩٦٠.

حصلت على ميداليـة المجلـس الأعلـى للفنـون والآداب عـن أحسن قصص معركة اكتوبر عام ١٩٧٤.

حصلت على جـائزة إحسـان عبد القـدوس للقصـة القصـيرة عـام ١٩٩١

حصلت على جائزة محمود تيمور للقصة القصيرة التى يقيمها المجلس الأعلى للثقافة على مستوى العالم العربـى عـام ١٩٩٤ وذلـك عن مجموعتها "ضيفة الفجر"

حولت عشرات من أعمالهـا إلـى مسلسـلات وأفـلام وسـهرات تليفزيونية حصلت بعضها على جوائز فى مصر ومثّل بعضها الآخـر مصر فى مهرجانات عالمية.